من مدرسة الحج

١ - دروس عَقدية مستفادة من الحجّ

٢- الحج وتهذيب النفوس

٣ - خطب ومواعظ من حَجَّة الوداع

تأليف

عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر

ح عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البدر، عبدالرزاق بن عبدالمحسن

من مدرسة الحج./ عبدالرزاق بن عبدالمحسن البدر.- المدينة المنورة، ١٤٢٨هـ

١٩٢ ص؛ ١٧×٢٤ سم

ردمك: ٣-٩-٥٠٩-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

١- الحج ٢ - الوعظ والإرشاد ٣ - الخطب الدينية أ- العنوان

ديوي ٢٥٢,٥ ١٤٢٨/٦٥٨٣

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٦٥٨٣

ردمك: ٣-٩-٥٠٩-٥٨-٩٩٦٠-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ

مقدِّمة المجموع

الحمد لله الحكيم العليم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له العلي العظيم، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله الدَّاعي إلى صراط الله المستقيم، صلَّى الله وسلَّم عليه وعلى آله وأصحابه ومَن سار على منهاجه القويم.

وبعد: فهذا مجموعٌ يحوي ثلاث رسائل تتعلَّق بالحج، تختصُّ بجانب الدروس المستفادة منه، والعبر التي تُنهل من مَعينه، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾، وقد طُبعت مفردةً غير مرة، وتُرجمت إلى عدد من اللُّغات بمنٍّ الله وفضلِه، وقد رأيت لَـمَّها في هذا المجموع، ورتبتها فيه حسب الأسبقيَّة في تأليفها ونشرها، وهي:

١ـ «دروسٌ عقديَّة مستفادة مِنَ الحجّ».
٢ـ «الحجّ وتهذيب النفوس».
٣ـ «خطب ومواعظ من حَجَّة الوداع».

وكلُّ رسالة من هذه الرسائل الثلاث تشتمل على ثلاثة عشر درساً، لكل درس منها عنوان مستقل، يمكن الاستفادة منها بقراءتها على الحجَّاج على شكل دروس يوميَّة.

وأسأل الله أن يبارك في هذا المجموع، وأن يجعله لوجهه الكريم خالصاً، ولعباده نافعاً، وأن يُثيب مَن سعى في نشره، وأن يغفر لي، ولوالدي، وللمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، إنَّه غفور رحيم، وأن يتقبل من حُجَّاج بيت الله حجهم، وأن يُوفِّقهم لتحقيقه على الوجه الذي يرضيه، وصلى الله وسلَّم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتبه

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

٨/ ٧/ ١٤٢٨

دروسٌ عقديَّةٌ

مستفادةٌ من الحجِّ

بقلم

عبد الرزَّاق بن عبد المحسن البدر

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم فضيلة الشيخ:

صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه، وبعد:

فقد اطَّلعتُ على نُبذة مختصرةٍ بعنوان: «دروسٌ عَقديَّةٌ مُستفادة من الحجِّ»، بقلم الدكتور الشيخ: **عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر**، فألفيتُها نبذة مفيدة، تشتمل على دروس قيِّمة في العقيدة تُستفاد من مناسك الحج ـ وهكذا جميع العبادات في الإسلام هي قائمة على التوحيد ـ ولكن الحج بصفة خاصة يَجتمع له العالَم الإسلامي من أقطار الأرض في بلد الله الحرام يتلقون تعاليم المناسك من كتاب الله وسنة رسولِه ﷺ، فهو بمثابة دورة تعليمية يرجعون بعدها إلى بلادهم وقد صحَّحوا كثيراً من المفاهيم الخاطئة التي كانوا عليها، فما أعظم هذا الحج وقد قال الله تعالى فيه لِخَليلِه إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾، وإنَّه واجبٌ على العلمـاء أن يُبيِّنوا تلك المنافع ويشرحوها للنَّاس حتى يستفيدوا من حجِّهم.

وفي هذه النبذة المشار إليها مشاركةٌ في القيام بهذا الواجب العظيم ـ جَزَى الله مؤلِّفَها الشيخ عبد الرزاق خيرَ الجزاء ـ ونفع بجهوده التي بذلها فيها وفي غيرها.

وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه.

كتبه: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان

٦/ ٨/ ١٤٢٠ هـ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ العالمين، والصلاة والسَّلام على خيـر النَّبيِّين وإمام المرسلين، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإنَّ الحجَّ مدرسة إيمانية عظيمة، يتلقَّى فيه المسلمون الدروسَ العظيمة والفوائد الجليلة والعِبر النافعة في شتى المجالات، وفي جميع أبواب الدين «العقائد والعبادات والسلوك ...»، ويتفاوتون في قوة تحصيلها وحسن اكتسابها تفاوتاً عظيماً بين مقلٍّ ومستكثرٍ، والتوفيق بيد الله وحده.

ولذا رأيتُ أنَّ من المفيد استخلاص جملة من الدروس العظيمة المستفادة في الحج، والمتعلّقة بجانب الاعتقاد خاصة؛ إذ هو الأساس والأصل الذي تُبنى عليه الأعمال، ويقوم عليه الدين كلّه، وهي مجرّد إشارة إلى بعض الدروس المستفادة فيه، وإلاَّ فإنَّ ما يُستفاد فيه من دروسٍ وفوائد أمر يفوق الحصر، ولا يبلغه العدُّ.

وقد بلغ عدد هذه الدروس المستخلصة هنا ثلاثة عشر درساً، راعيت أن تكون متجانسة في حجمها وطريقة طرحها، واللهَ أسأل أن ينفع بهذا الجهد وأن يتقبَّله بقبول حسن، إنَّه نعم المجيب.

الأول: بيان أنَّ الحج مدرسة عظيمة

لا ريب أنَّ الحجَّ من أفضل الطاعات وأجلِّ القُرُبات التي يتقرَّب بها المسلم إلى ربِّه تعالى، بل هو عبادةٌ من العبادات التي افترضها الله وجعلها إحدى الدعائم الخمس التي يرتكز عليها الدينُ الإسلاميُّ الحنيف، والتي بيَّنها رسول الله ﷺ بقوله في الحديث الصحيح: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمّداً رسول الله، وإقامِ الصلاة، وإيتاءِ الزكاة، وصيامِ رمضان، وحجِّ البيتِ**»(١).

وثبت عنه ﷺ في أحاديثَ كثيرةٍ ترغيبُ أمّته في الحج وحثُّهم على هذه الطاعة العظيمة، وبيَّن لهم ما يَغنمونه في الحج من أجورٍ عظيمةٍ وثوابٍ جزيل وغفرانٍ للذنوب.

روى مسلم في «صحيحه» أنَّ النبي ﷺ قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه عند إسلامه: «**أمَا علِمتَ أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله**»(٢).

وروى الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من حجّ ولم يرفث ولم يفسق رَجَع كيوم ولدته أمُّه**»(٣)، وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**العمرة إلى العمرة كفَّارةٌ لما بينهما، والحجُّ المبرور ليس له جزاءٌ إلَّا الجنة**»(٤).

وقد حج صلواتُ الله وسلامه عليه بالناس في السنة العاشرة من الهجرة النبوية حجّتَه التي رسم فيها لأُمّته عملياً كيفية أداء هذه الفريضةِ العظيمةِ وحثّ على تلقِّي

---

(١) أخرجه البخاري (رقم: ٨)، ومسلم (رقم: ١٦).

(٢) «صحيح مسلم» (رقم: ١٢١).

(٣) «صحيح البخاري» (رقم: ١٥٢١)، ومسلم (رقم: ١٣٥٠).

(٤) «صحيح مسلم» (رقم: ١٣٤٩).

كلّ ما يصدر منه ﷺ من أعمال وأقوال، فقال: «خذوا عنّي مناسككم فلعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا»[(١)]، فسُمِّيت حجّةَ الوداع، وفيها نزل على رسول الله ﷺ قولُ الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة: المائدة، الآية ٣].

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم قدِم لأداء هذه الطاعة العظيمة أنْ يجتهد تمام الاجتهاد في معرفة هدي النبي ﷺ في الحج وكيفية أدائه لمناسكه ليسلك منهجه وليسير على طريقته وليقتفي أثره وليأخذ عنه مناسكه، وليتأتّى له بذلك الإتيانُ بالحج على التمام والكمال، إذ لا كمال في هذه الطاعة وفي غيرها من الطاعات إلاّ بالاقتفاء لآثار الرسول الكريم ﷺ والسير على منهاجه.

لا ريب أنَّ كلَّ مسلم على وجه الأرض تتحرّك نفسه في هذه الأيّام المباركة شوقاً لأداء هذه الطاعة العظيمة، وطمعاً في تحقيق هذا النسك الجليل، ومحبّةً لرؤية بيت الله العتيق؛ إذ إنَّ المسلمين جميعَهم صِلتُهم ببيت الله الحرام وثيقةٌ، وهي تنشأُ منذُ بدء انتماءِ المسلم لدين الإسلام، وتستمرُّ معه ما بقيت روحه في جسده، فالصبيُّ الذي يولد في الإسلام أوّلُ شيء يطرقُ سمعَه من فرائض الإسلام أركانُه الخمسةُ التي أحدها حجُّ بيت الله الحرام.

والكافر إذا أسلم، وشهد أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله أوّلُ ما يُوجَّه إليه من فرائض الإسلام بقيّةُ أركانه بعد الشهادتين وهي: إقامُ الصلاة وإيتاءُ الزكاة وصومُ رمضان وحج بيت الله الحرام، وأوّلُ أركان الإسلام بعد الشهادتين الصلوات الخمس التي افترضها الله على عباده في كلِّ يومٍ وليلةٍ، وجَعَلَ استقبال بيت الله الحرام شرطاً من شروطها، قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [البقرة، ١٤٤]، فصِلةُ المسلم ببيت الله الحرام مستمرةٌ في كلِّ

---

(١) «صحيح مسلم» (رقم: ١٢٩٧).

يوم وليلةٍ يستقبله مع القدرة في كلِّ صلاة يصليها فريضة كانت أو نافلة كما يستقبله في الدعاء[١].

ولهذا فإنَّ هذه الصلة الوثيقة التي حصل بها هذا الارتباطُ بين قلب المسلم وبيت ربّه بصفة مستمرة تدفع بالمسلم ولا بدَّ إلى الرغبة المُلِحَّة في التوجُّه إلى ذلك البيت العتيق ليمتِع بصره بالنظر إليه وليؤدّي الحج الذي افترضه الله عليه إذا استطاع إليه سبيلاً، فالمسلم متى استطاع الحج بادر إليه أداءً لهذه الفريضةِ ورغبةً في مشاهدة البيت الذي يستقبله في جميع صلواته، ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [آل عمران ٩٧].

ولهذا فإنَّ الواجب عليك أخي الحاج أن تحمد الله كثيراً على نعمته عليك العظيمة، بالتوفيق لأداء هذه الطاعة، والقدوم لتحقيق هذه العبادة، والتشرف برؤية بيت الله العتيق قبلة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وأن تجتهد في تكميل أعمال الحج على أحسن وجه وأكمل حال دون إخلالٍ أو تقصيرٍ ودون إفراط أو تفريط، بل تكون على هَدْيٍ قاصدٍ وطريقٍ مستقيمٍ مُتَّبِعاً في ذلك لرسولك الكريم ﷺ، تبتغي بعملك هذا مرضاةَ ربِّك، ونيلَ ثوابه، ومغفرةَ الذنوب، ولتعودَ إلى بلادك بعد هذه الرحلة المباركة وذنبُك مغفورٌ، وسعيك مشكورٌ، وعملُك صالحٌ مُتقبَّلٌ مبرورٌ، بحياةٍ جديدةٍ صالحةٍ مليئةٍ بالإيمان والتقوى، عامرةٍ بالخير والاستقامة، زاخرةٍ بالجد والاجتهاد في طاعة الله.

إنَّ الحج فرصةٌ عظيمةٌ للتزوُّد فيه من زاد الآخرة بالتوبة إلى الله والإنابة إليه والإقبال على طاعته والسعي في مرضاته، ومن خلال الحج ومناسكه يتهيَّأ للحاج فُرَصٌ كثيرةٌ لتلقي الدروس النافعة والعبَر المؤثِّرة والفوائد الجليلة والثمار الكريمة اليانعة في العقيدة والعبادة والأخلاق بدءاً بأوّل عملٍ من أعمال الحج يقوم به العبد في الميقات وانتهاء بآخر عمل من أعمال الحج بطوافِ سبعةِ أشواطٍ يودِّع فيها الحاجُّ

---

(١) انظر: «الحج فضله وفوائده»، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن البدر حفظه الله، ضمن مجموع: «قبس من هدي الإسلام» (ص/ ١٢٨ ـ ١٣٣).

بيت الله الحرام، وهو بصدقٍ مدرسةٌ تربويَّةٌ إيمانيةٌ عظيمةٌ يتخرّج فيها المؤمنون المتقون، فيشهدون في حجِّهم المنافعَ العظيمةَ والدروسَ المتنوِّعةَ والعِظاتِ المؤثِّرةَ، فتحيى بذلك القلوب ويتقوّى الإيمان، يقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨]، ومنافع الحجِّ لا تُحصى وفوائده لا تُستقصى، وعبرُه ودروسُه المستفادة منه لا يحاط بها، وسوف نقف بإذن الله تعالى من خلال هذه الرسالة على جملة طيّبة ومجموعة نافعة من الدروس العظيمة والمنافع الجليلة المستفادة من حج بيت الله الحرام، وبالله وحده التوفيق.

❊ ❊ ❊

الثاني: في بيان جملة من منافع الحج

تقدَّم الكلام على فضلِ الحج ورفعةِ مكانته وأنَّه من أجلِّ العبادات وأعظم القُرُبات وأنَّه ركنٌ من أركان الإسلام العظيمة وأساس من أُسُسه المتينة التي بها يقوم وعليها يُبنى، وتقدّم الإشارةُ إلى أنَّ الحج فيه من الفوائد والمنافع الدينية والدنيوية ما لا يحصيه المُحصون ولا يقدر على عدّه العادُّون، وفي ذلك يقول الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٧ ـ ٢٩]، فالحجُّ مليءٌ بالمنافع العظيمة الدينية والدنيوية، واللاّم في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ هي لام التعليل وهي متعلِّقة بقوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ الآية، أي: إن تؤذِّن فيهم بالحج يأتوك مشاة وركباناً لأجل أن يشهدوا أي يحضروا منافع لهم والمراد بحضورهم المنافع حصولها لهم.

وقوله تعالى في الآية ﴿مَنَٰفِعَ﴾ هو جمعُ منفعةٍ، ونكَّر المنافعَ؛ لأنَّه أراد منافع مختصةً بهذه العبادة دينيّةً ودنيويةً لا توجد في غيرها من العبادات مجتمعة.

روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ قال: «منافعُ في الدنيا ومنافعُ في الآخرة، فأمّا منافع الآخرة فرضوان الله ﷻ، وأمَّا منافع الدنيا فما يصيبون من لحوم البُدْنِ في ذلك والذبائحِ والتجارات»(١).

وروى عبد الرزاق عن مجاهد رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾،

---

(١) أورده السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٣٧).

قال: «التجارة وما أرضى الله من أمر الدنيا والآخرة»(١).

وروى ابن جرير الطبري في «تفسيره» عن مجاهد رحمه الله: ﴿ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ ﴾ قال: «الأجرُ في الآخرة والتجارةُ في الدنيا»(٢).

فالمنافع التي يُحصِّلها الحجيج ويَجنونها في حجِّهم لبيت الله الحرام عديدة ومتنوِّعة:

* منافعُ دينيةٌ من العبادات الفاضلة والطاعات الجليلة التي لا تكون إلا فيه.

* ومنافعُ دنيويةٌ من التكسب وحصول الأرباح الدنيوية، كما قال تعالى في سياق آيات الحج من سورة البقرة: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة ١٩٨].

روى أبو داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كانوا يتقون البيوعَ والتجارة في الموسم والحج يقولون: أيامُ ذكر، فأنزل الله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾»(٣).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الآية أنَّه قال: «لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده»(٤).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله: «وقد أطبق علماء التفسير على أنَّ معنى قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾: أنَّه ليس على الحاج إثمٌ ولا حرجٌ إذا ابتغى ربحاً بتجارة في أيّام الحج إن كان ذلك لا يشغله عن شيء من أداء مناسكه»(٥).

---

(١) «تفسير عبد الرزاق» (٢/ ٣٦).

(٢) «جامع البيان» (١٠/ ١٤٧).

(٣) رواه أبو داود (رقم:١٧٣٤)، ورواه وكيع وسعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد وابن جرير كما في «الدر المنثور» للسيوطي (١/ ٥٣٤).

(٤) رواه ابن جرير (٢/ ٢٨٢).

(٥) «أضواء البيان» (٥/ ٤٨٩).

ومن المنافع الدنيوية أيضاً للحجاج ما يصيبونه من البُدن والذبائح كما قال تعالى: ﴿ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٣٣].

إلَّا أنَّ ما يحصِّله الحاج من منافع دينية في حَجِّه لا تقارن بهذه المنافع الدنيوية؛ إذ في الحجِّ ما هو أشرف من ذلك من الأجور العظيمة والثواب الجزيل ومغفرة الذنوب وتكفير السيِّئات وغير ذلك ممّا لا يحصى من الفوائد الدينية العظيمة التي ينالها الحاجُّ إن كان متَّقياً لله في حجه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، وأيُّ خير أعظم وأيُّ ربح أجلُّ من أن يخرج الحاج من حجه كيوم ولدته أمّه بلا إثم ولا خطيئة كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ﴾ [البقرة ٢٠٣]، وقد اختار ابن جرير في تفسيره لهذه الآية بعد أن ذكر أقوال أهل العلم في معناها أنَّ المراد «فمن تعجّل في يومين من أيّام منى الثلاثة، فنفر في اليوم الثاني فلا إثم عليه، لحطِّ الله ذنوبَه إن كان قد اتّقى الله في حجه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه، وفعل فيه ما أَمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلّفه من حدوده، ومن تأخّر إلى اليوم الثالث ... فلا إثم عليه لتكفير الله له ما سَلَف من آثامه وإجرامه إن كان اتّقى الله في حجه بأدائه بحدوده»(١).

ثم ذكر رحمه الله تظاهر الأخبار عن رسول الله ﷺ في هذا المعنى ومن ذلك قوله ﷺ: «من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه»(٢)، وقوله ﷺ: **«الحج المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنة»**(٣)، وقوله ﷺ: **«تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد»**(٤).

---

(١) «جامع البيان» (٢/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (رقم: ١٥٢١)، ومسلم (رقم: ١٣٥٠).

(٣) أخرجه مسلم (رقم: ١٣٤٩).

(٤) أخرجه النسائي (٥/ ١١٥)، والطبراني في «الكبير» (رقم: ١١١٩٦)، وصحَّحه الألباني في «الصحيحة» (رقم: ١٢٠٠).

فهذه النصوصُ تدلُّ على أنَّ من حج فقضاه بحدوده على ما أمره الله فهو خارج من ذنوبه كما قال جلّ وعلا: ﴿فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ أي: اتقى الله في حَجِّه بفعل الأوامر واجتناب النواهي، ولا ريب أنَّ هذه فضيلة عظيمة ومنفعة جليلة تسارع في نيلها القلوب المؤمنة وتطمع في تحصيلها النفوس الصادقة، فللّه ما أجلّها من فضيلة وأعظمها من منفعة عندما ينقلب الحاج إلى بلده بعد قضائه لحجِّه وذنبه مغفور، قد خرج من ذنوبه وآثامه طاهراً نقياً كيوم ولدته أمّه ليس عليه ذنب ولا خطيئة إذا كان متّقياً ربَّه في حجِّه.

بل إنَّ الربَّ سبحانه من عظيم كرمه وجميل إحسانه بعباده الحجيج يباهي ملائكته بحجاج بيته الحرام عندما يقفون جميعُهم على صعيد عرفة ويقول: «انظروا إلى عبادي أتوني شُعثاً غُبراً ضاحين من كلِّ فجٍّ عميق أشهدكم أني قد غفرتُ لهم»(١).

وبهذا يتبيّن أنَّ الحاجَّ يعود من حجه بأكبر ربح وأعظم غنيمة ألا وهي مغفرة ربِّه لذنبه، فيبدأ بعد الحج حياة جديدة صالحة مليئة بالإيمان والتقوى عامرة بالخير والاستقامة والمحافظة على الطاعة، إلاَّ أنَّ حصولَ هذا الأجر مشروطٌ كما تقدّم بأن يأتي بالحج على وجه صحيح بإخلاص وصدق وتوبة نصوح مع مجانبةٍ لما يُخِلُّ به من رفثٍ وفسوقٍ، فإذا كان كذلك جبَّ ما قبله وخرج منه الحاج بتلك الحال الرائعة، كيوم ولدته أمه بلا إثم ولا خطيئة.

❋ ❋ ❋

---

(١) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (رقم: ٢٨٤٠)، وضعّفه الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (رقم: ٦٧٩).

وللجملة الأولى أعني إلى قوله: «غبراً» منه شاهد من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند أحمد (٢/ ٢٢٤)، ومن حديث أبي هريرة عند أحمد أيضاً (٢/ ٣٠٥)، وابن خزيمة (رقم: ٢٨٤٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦٥)، وغيرهم.

الثالث: الدلالات العقدية في الإهلال بالتوحيد

إنَّ من أجلِّ الدروس العظيمة التي يفيدها المسلم في حجّه لبيت الله الحرام وجوبَ إخلاص العبادات كلِّها لله وحده لا شريك له، فالمسلم يبدأ حجَّه أولَّ ما يبدأ بإعلان التوحيد ونبذ الشرك، قائلاً: «**لبيكَ اللّهمَّ لبّيك، لبيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»، يقولها ويرفع بها صوته، وهو في الوقت نفسه مستشعر ما دلت عليه من وجوب إفراد الله وحده بالعبادة والبعدِ عن الشرك، فكما أنَّ اللهَ متفرّد بالنِّعمة والعطاء لا شريك له، فهو متفرِّدٌ بالتوحيد لا نِدَّ له، فلا يُدعى إلاَّ الله، ولا يُتوكّل إلاَّ على الله، ولا يُستغاث إلاَّ به، ولا يُصرف أيُّ نوع من أنواع العبادة إلاَّ له، وكما أنَّ العبد مُطالَبٌ بقصد الله وحده في الحج، فهو مُطالَبٌ بقصده وحده في كلِّ عبادة يأتيها وكلّ طاعة يتقرّب بها، فمن صرف شيئاً من العبادة لغير الله أشرك بالله العظيم، وخسر الخسران المبين، وحبط عمله، ولم يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً.

لقد جاء الإسلام بهذا الإهلال العظيم، الإهلال بتوحيد الله وإخلاص الدين له والبعدِ عن الشرك كلّه صغيره وكبيره، دقيقه وجليله، بينما كان المشركون عبّادُ الأصنام والأوثان، يُهلّون في إحرامهم بالحج بالشرك والتنديد، فكانوا يقولون في تلبيتهم: «لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، فيُدخلون مع الله في التلبية آلهتهم الباطلةَ، ويجعلون ملكها بيده، وهذا هو معنى قول الله عنهم في القرآن الكريم: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف ١٠٦]، أي ما يؤمن أكثرهم بالله بأنّه الخالق الرازق المدبّر إلاَّ وهم مشركون معه في العبادة أوثاناً لا تملك شيئاً وأصناماً لا تنفع ولا تضرّ ولا تعطي ولا تمنع بل لا تملك من ذلك شيئاً لنفسها فضلاً عن أن تملكه لغيرها.

روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مِن إيمانهم إذا قيل لهم مَن خلق السماء، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون».

وعن عكرمة أنَّه قال: «تسألهم من خلقهم ومن خلق السموات والأرض فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيرَه».

وعن مجاهد قال: «إيمانهم قولهم: الله خالقنا ويرزقنا ويميتنا، فهذا إيمانٌ مع شرك عبادتهم غيره».

وعن ابن زيد قال: «ليس أحد يعبد مع الله غيرَه إلاَّ وهو مؤمن بالله، ويعرف أنَّ اللهَ ربُّه، وأنَّ الله خالقُه ورازقُه وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء ٧٥ ـ ٧٧]، قد عرف أنَّهم يعبدون ربَّ العالمين مع ما يعبدون، قال: فليس أحد يشرك إلاَّ وهو مؤمن به، ألا ترى كيف كانت العرب تلبِّي تقول: لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، المشركون كانوا يقولون هذا»[1].

لقد كان المشركون زمن النبي ﷺ يقرِّون بأنَّ خالقَهم ورازقَهم ومدبّر شؤونهم هو الله، ثم هم مع هذا الإقرار لا يُخلِصون الدين له، بل يشركون معه غيرَه في العبادة من الأشجار والأحجار والأصنام وغيرها، وقد جلى الله هذا الأمرَ وبيّنه في مواطن كثيرة من القرآن الكريم، كقوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت ٦١]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: «يقول تعالى مقرِّراً أنَّه لا إله إلَّا هو؛ لأنَّ المشركين الذين يعبدون معه غيرَه معترفون أنَّه المستقلّ بخلق السموات والأرض، والشمس والقمر، وتسخير الليل والنهار، وأنَّه الخالق الرازق لعباده، ومقدِّر آجالِهم واختلافها، واختلاف أرزاقهم ففاوَت بينهم، فمنهم الغني والفقير. وهو العليم بما يصلح كلاًّ منهم، ومن يستحق الغنى ممّن يستحق الفقر، فذكر أنَّه المستبدُّ بخلق الأشياءَ المتفرّدُ بتدبيرها، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُعبد غيره؟ ولِـمَ

(١) «جامع البيان» (٨/ ٧٧ ـ ٧٨).

يتوكّل على غيره؟ فكما أنَّه الواحد في ملكه فليكن الواحدَ في عبادته، وكثيراً ما يقرّر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية، وقد كان المشركون يعترفون بذلك، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبّيك لا شريك لك إلاَّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». اهـ[١].

وهذا المعنى يكثر في القرآن الكريم، الاستدلال على الكفار باعترافهم بربوبية الله جلّ وعلا على وجوب توحيده في عبادته، وإخلاص الدين له، ولذلك يخاطبهم في توحيد الربوبية باستفهام التقرير، فإذا أقرّوا بربوبيته احتجّ بها عليهم على أنَّه هو المستحق لأنْ يُعبد وحده، ووبَّخهم منكراً عليهم شركهم به غيره، مع اعترافهم بأنَّه هو الرب وحده؛ لأنَّ من اعترف بأنَّه الرب وحده لَزِمه أن يخلص العبادة كلّها له، وبهذا يتبيّن أنَّ الاعتراف بأنَّ الله هو الخالق الرازق المنعم المتصرّف المدبّر لشؤون الخلق لا يكفي في التوحيد، ولا يُنجي من عذاب الله يوم القيامة ما لم تُخلص العبادةُ كلُّها لله وحده، فالله لا يقبل من عباده توحيدهم له في الربوبية إلاَّ إذا أفردوه بتوحيد العبادة، فلا يتّخذون له ندًّا، ولا يدعون معه أحداً، ولا يتوكَّلون إلاَّ عليه، ولا يصرفون شيئاً من العبادة إلاَّ له سبحانه، فكما أنَّه سبحانه المتفرّد بالخلق، فهو سبحانه المتفرّد بجميع أنواع العبادة.

ولهذا قال تعالى للذين صرفوا العبادة لغيره، مع أنَّهم يعلمون أنّه خالقهم ورازقهم: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة ٢٢]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أيْ: لا تُشركوا بالله غيرَه من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنَّه لا ربَّ لكم يرزقكم غيرُه، وقد علمتم أنَّ الذي يدعوكم إليه الرسول ﷺ من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه»[٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٣٠١).

(٢) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٦٤).

وقال قتادة: «أي تعلمون أنَّ الله خلقكم وخلق السموات والأرض، ثم تجعلون له أنداداً»[١].

إنَّ النِّعمةَ على أمَّة الإسلام عظيمةٌ بهدايتهم إلى توحيد الله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والنعمةُ عليهم عظيمة بتوفيقهم إلى الإهلال بتوحيد الله بعد أن كان غيرُهم يهلُّ بالشرك والتنديد، فله الحمدُ سبحانه على توفيقه وإنعامه وهدايته حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه كما يحب ربُّنا الكريمُ ويرضى.

***

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (١/ ١٦٤).

الرابع: دلالة التلبية على التحذير من الشّرك

تقدّم معنا بيانُ فضلِ التلبية وأنّها مشتملةٌ على الإهلال بتوحيد الله ﷻ، ونبذ الشرك؛ ولهذا قال الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنه، كما في صحيح مسلم عندما وصف حجَّة النبيِّ ﷺ قال: «**فأهلَّ بالتوحيد، لبّيك اللّهمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك لبّيك، إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك**»[1]، فوصف رضي الله عنه هذا الإهلال بأنَّه إهلالٌ بالتوحيد؛ لأنَّ فيه الإخلاصَ لله ونبذَ الشرك، وهذا يدلُّ أيضاً على أنَّ هذه الكلماتِ أعني كلماتِ التلبيةِ ليست ألفاظاً مجرّدة لا تدلّ على معان؛ بل لها معنىً عظيم، ومدلول عميق، ألا وهو روح الدين وأساسه وأصله الذي ينبني عليه توحيد الله تعالى.

ولهذا فإنَّ الواجب على كلِّ من أهلَّ بهذه الكلمات العظيمة أن يستحضر ما دلّت عليه من معنى، وأن يعرفَ ما تضمّنته من دلالة؛ ليكون صادقاً في إهلاله، موافقاً كلامُه حقيقةَ حاله، بحيث يكون مستمسكاً بالتوحيد، محافظاً عليه، مراعياً لحقوقه، مجانباً تمام المجانبة لنواقضه وما يضادّه من الشرك والتنديد، فلا يسألُ إلاَّ الله، ولا يستغيث إلاَّ بالله، ولا يتوكّل إلاَّ على الله، ولا يطلب المددَ والعونَ والنصرَ إلاَّ من الله، ولا يصرف أيَّ نوع من أنواع العبادة إلاَّ لله وحده، الذي بيده سبحانه العطاءُ والمنع والقبض والبسط والنفع والضر، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل ٦٢].

والمسلم عندما يقول في تلبيته: «**لا شريك لك**» يجب أن يكون عالـمـاً بحقيقة الشرك، مُدرِكاً لخطره، حَذِراً تمام الحذَر من الوقوع فيه، أو في شيء من أسبابه ووسائله وطرقه؛ إذ هو أعظم ذنب عُصِيَ اللهُ به، ولهذا رُتّبَ عليه من العقوبة في

---

(١) «صحيح مسلم» (رقم:١٢١٨).

الدنيا والآخرة ما لم يُرتَّب على غيره من الذنوب، من إباحة دماء أهله وأموالهم، وسبيِ نسائهم وأولادهم، وعدمِ مغفرته من بين الذنوب إلاَّ بالتوبة منه، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ﴾ [المائدة ٧٢]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [الزمر ٦٥، ٦٦]، والآيات في هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة جدًّا، يحذِّر فيها الربُّ سبحانه عبادَه من الشرك به، ويبيّن لهم شدَّةَ خطره وعِظمَ مغبَّته وسوء عاقبته على فاعله في الدنيا والآخرة.

فالشِّرك عاقبته وخيمة، ونهايته أليمة، وأخطاره جسيمة، ولا يربح فاعلُه من ورائه شيئاً إلاَّ الخيبةَ والحرمان والمذلّة والخسران، وهو أعظم ذنب عُصيَ الله به؛ لأنَّه أظلم الظلم؛ إذ مضمونه تنقّصُ ربِّ العالمين، وصرف خالصِ حقّه لغيره، وعدلُ غيره به؛ ولأنّه مناقضٌ للمقصود بالخلق والأمر، ومنافٍ له من كلِّ وجه، وفيه غاية المعاندة لربِّ العالمين والاستكبارِ عن طاعته، والذلِّ له؛ ولأنَّ فيه تشبيهاً للمخلوق بالخالق تعالى وتقدّس، وكيف يُجعَل من لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، فضلاً عن غيره شبيهاً بمن له الخلقُ كلُّه، وله الملك كلّه، وبيده الخير كلّه، وإليه يرجع الأمر كلّه، فأزِمَّة الأمور بيده سبحانه، ومرجعها إليه، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسلَ له من بعده.

إنَّ الواجب على كلِّ مسلم أن يحذر من الشرك أشدَّ الحذر، وأن يخاف من الوقوع فيه أشدَّ الخوف، فهذا نبيُّ الله وخليله إبراهيمُ عليه السلام يقول في دعائه: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [إبراهيم ٣٥،٣٦]، فخاف عليه السلام من ذلك ودعا ربَّه أن يعافيه وبنيه من عبادتها، فإذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام يسأل الله أن

يجنّبه ويجنّب بنيه عبادة الأصنام، فما ظنّك بغيره؟ كما قال إبراهيم التيمي رحمه الله: «ومن يأمنُ من البلاء بعد إبراهيم»(١)، فهذا ولا ريب يوجب للقلب الحي الخوفَ من الشرك وشدّةَ الاحتراز منه، وسؤالَ الله دوماً وأبداً العافية من الوقوع فيه، وهذا أيضاً يتطلّب من العبد المؤمن أن يكون عالماً بحقيقة الشرك وأسبابه، ومبادئه وأنواعه؛ لئلاَّ يقع فيه، ولهذا قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه»، رواه البخاري ومسلم في «صحيحيهما»(٢).

وذلك أنَّ من لم يعرف إلاَّ الخير قد يأتيه الشر ولا يعرف أنَّه شرٌّ، فإمّا أن يقع فيه، وإمَّا أن لا ينكرَه كما ينكره الذي عرفه؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إنَّما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لم يَعرف الجاهلية»(٣).

إنَّ البعدَ عن الشرك كلِّه وإخلاصَ التوحيد لله أصلٌ يجب أن تُبنى عليه كلُّ طاعة يتقرّب العبدُ بها إلى الله تعالى، الحجُّ وغيرُه، وقد قال الله تعالى في سورة الحجّ: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج ٢٧ ـ ٣١].

---

(١) رواه ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٢٢٨).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» (رقم: ٣٦٠٦)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٨٤٧).

(٣) انظره مع تعليق مفيد عليه في «الفوائد» لابن القيم (ص/ ٢٠١).

فحذّر سبحانه في هذا السياق الكريم المتعلّق بالحج من الشرك، وأمر باجتنابه، وبيّن قبحَه وسوءَ عاقبتِه، وأنَّ فاعلَه بفعله له كأنَّما خرَّ من السماء فتخطفُه الطيرُ أو تهوي به الريحُ في مكان سحيق، كما أنَّه سبحانه قد أمر نبيَّه إبراهيم عليه السلام في الآية التي قبل هذه الآيات بتطهير البيت بعد أن بوّأه مكانه، ونهاه عن الإشراك بالله، وذلك في قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، فكانت بذلك الآيات المتعلّقةُ بالحج محفوفةً بالتحذير من الشرك، والنهي عنه، وبيان سوء عاقبته، ممّا يدلُّ أعظم دلالة على شناعةِ الشرك وعِظمِ خطورته، حمانا الله وإيّاكم منه، ورَزقنا الإخلاص في القول والعمل.

* * *

الخامس: في بيان جملةٍ من الفوائد المستفادة مِنَ التلبية

إنَّ لكلمات التلبية شأناً عظيماً ودلالات عميقة، وقد سبق الحديثُ عن دلالات كلمات التلبية على تحقيق التوحيد ونبذ الشرك، وهي بلا ريب كلمات عظيمة تشتمل على معانٍ جليلةٍ، ومقاصدَ نبيلةٍ، وفوائدَ جمّة، وقد نبّه أهل العلم على عِظم شأن هذه الكلمات وعِظم ما اشتملت عليه من منافعَ وفوائد، وقد تناول هذا الجانب بوفاء وزيادة في البسط والبيان الإمامُ العلاّمة ابن القيّم في كتابه «تهذيب السنن»[1].

قال رحمه الله: «وقد اشتملت كلمات التلبيّة على قواعدَ عظيمةٍ وفوائد جليلة ...»، ثمّ ذكر رحمه الله إحدى وعشرين فائدة، ولعلّي في هذا المقام ألـخِّص جملةً طيّبةً من هذه الفوائد الجليلة التي اشتملت عليها التلبية ممّا ذكره رحمه الله:

* فمن هذه الفوائد أنَّ قولك: «لبّيك» يتضمّن إجابة داعٍ دعاك، ومنادٍ ناداك، ولا يصح في لغة ولا عقل إجابة من لا يتكلّم ولا يدعو من أجابه، ففي هذا إثبات صفة الكلام لله.

* ومنها: أنَّها تتضمّن المحبة، ولا يُقال لبّيك إلاَّ لمن تحبّه وتعظِّمه، ولهذا قيل في معناها: أنا مواجه لك بما تحب، وأنَّها من قولهم: امرأة لبّة، أي محبة لولدها.

* ومنها: أنَّ التلبية تتضمّن التزام دوام العبودية، ولهذا قيل: هي من الإقامة، أي أنا مقيم على طاعتك.

* ومنها: أنَّها تتضمّن الخضوع والذلّ، أي خضوعاً بعد خضوع، من قولهم: أنا مُلبٌّ بين يديك، أي خاضع ذليل.

* ومنها: أنَّها تتضمّن الإخلاص، ولهذا قيل: إنَّها من اللُبِّ، وهو الخالص.

---

(١) «تهذيب السنن» (٢/ ٣٣٧ ـ ٣٤٠).

* ومنها: أنَّها تتضمّن الإقرار بسمع الرب تعالى؛ إذ يستحيل أن يقول الرجل لبّيك لمن لا يسمع دعاءَه.

* ومنها: أنَّها تتضمّن التقرّب من الله، ولهذا قيل: إنَّها من الإلباب، وهو التقرّب.

* ومن هذه الفوائد: أنَّها جُعلت في الإحرام شعاراً لانتقال من حال إلى حال، ومن مَنسك إلى منسك، كما جُعل التكبيرُ في الصلاة سبباً[1]؛ للانتقال من ركن إلى ركن، ولهذا كانت السنة أن يُلبِّي حتى يشرع في الطواف فيقطعُ التلبية، ثمَّ إذا سار لبّى حتى يقف بعرفة فيقطعها، ثمَّ يلبّي حتى يقف بمزدلفة فيقطعها، ثم يلبِّي حتى يرمي جمرة العقبة فيقطعها، فالتلبية شعار الحج والتنقل في أعمال المناسك، فالحاجُّ كلّما انتقل من ركن إلى ركن قال: «لبّيك اللّهمَّ لبّيك»، كما أنَّ المصلي يقول في انتقاله من ركن إلى ركن «الله أكبر»، فإذا حلَّ من نسكه قطعها، كما يكون سلام المصلِّي قاطعاً لتكبيره.

* ومن فوائدها: أنَّها شعارُ التوحيد، ملَّةُ إبراهيم عليه السلام، الذي هو روح الحج ومقصده، بل روح العبادات كلِّها والمقصود منها، ولهذا كانت التلبيةُ مفتاحَ هذه العبادة التي يُدخل فيها بها.

* ومنها: أنَّها متضمّنة لمفتاح الجنة وباب الإسلام الذي يُدخل منه إليه، وهو كلمة الإخلاص والشهادة لله بأنَّه لا شريك له.

* ومنها: أنَّها مشتملة على الحمد لله الذي هو من أحبِّ ما يتقرّب به العبد إلى الله، وأول من يُدعى إلى الجنة أهله، وهو فاتحة الصلاة وخاتمتها.

* ومنها: أنَّها مشتملة على الاعتراف لله بالنعمة كلّها، ولهذا عرّفها باللام المفيدة للاستغراق أي النعمُ كلُّها لك، وأنت موليها والمنعم بها.

---

(١) في الأصل: «سبعاً»، وهو تصحيف.

* ومنها: أنَّها مشتملة على الاعتراف بأنَّ الملك كلّه لله وحده، فلا ملك على الحقيقة لغيره.

* ومن هذه الفوائد أنَّ التلبية متضمّنة للإخبار عن اجتماع الملك والنعمة والحمد لله ﷻ، وهذا نوعٌ آخر من الثناء عليه، غيرُ الثناء بمفردات تلك الأوصاف العليّة، فاجتماع الملك المتضمّن للقدرة مع النعمة المتضمنة لغاية النفع والإحسان والرحمة مع الحمد المتضمّن لعامة الجلال والإكرام الداعي إلى محبّته، فيه من العظمة والكمال والجلال ما هو أولى به، وهو أهله سبحانه، وفي ذكر العبد له ومعرفته به من انجذاب قلبه إلى الله وإقباله عليه والتوجّه بدواعي المحبة كلّها إليه ما هو مقصود العبودية ولبُّها.

* ومن الفوائد أنَّ النبي ﷺ قال: «**أفضل ما قلت أنا والنَّبيُّون من قبلي: لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير**»، وقد اشتملت التلبية على هذه الكلمات بعينها، وتضمّنت معانيها.

* ومن الفوائد أيضاً أنَّ كلمات التلبية متضمّنة للردِّ على كلِّ مبطل في صفات الله وتوحيده، فهي مبطلة لقول المشركين على اختلاف طوائفهم ومقالاتهم، ومبطلةٌ لقول الفلاسفة ومن تأثّر بهم من المعطّلين لصفات الله التي هي متعلّق الحمد، ومبطلة لقول مجوس الأمة، القدرية الذين أخرجوا عن ملك الربِّ وقدرته أفعالَ عباده من الملائكة والجنِّ والإنس، فلم يثبتوا له عليها قدرة، ولا جعلوه خالقاً لها، فمن علم معنى هذه الكلمات وشهدها وأيقن بها باين جميع الطوائف المعطّلة.

* ومن الفوائد أيضاً أنَّ في إعادة الشهادة له بأنَّه لا شريك له لطيفةً، وهي أنّه أخبر أنَّه لا شريك له عقِب إجابته بقوله: لبّيك، ثم أعادها عقب قوله: «إنَّ الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك»، وذلك يتضمّن أنَّه لا شريك له في الحمد والنعمة والملك والأول يتضمّن أنّه لا شريك له في إجابة هذه الدعوة، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران ١٨]، فأخبر بأنَّه لا إله إلاَّ هو في أول الآية، وذلك

داخل تحت شهادته وشهادة ملائكته وأولي العلم، وهذا هو المشهود به، ثمَّ أخبر عن قيامه بالقسط، وهو العدل، فأعاد الشهادة بأنَّه لا إله إلاَّ هو مع قيامه بالقسط.

فهذه جملةٌ من الفوائد العظيمة والقطوف الكريمة ممّا تضمّنته هذه الكلماتُ الجليلة، كلماتُ التلبية، وهي ولا ريب تدلّ على أهمية العناية بفهم معاني هذه الكلمات، وأنَّ حسن الاهتمام بذلك يعين العبد على الإتيان بهذه العبادة على أكمل وجه وأحسن حال.

***

السادس: في الطواف ببيت الله الحرام

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج عندما يصل إلى البيت العتيق ويقوم بتلك العبادة العظيمة: الطواف ببيت الله الحرام، ويرى الحجيج كلّهم يقومون بذلك طاعة لله وامتثالاً لأمره ما يفيده في ذلك المقام من معرفة كبيرة بعظم شأن هذه العبادة وجلالة قدرها وقوة وقعها على القلوب المؤمنة، ولا سيما عندما يجتمع ذلك الكمُّ الكبير من المؤمنين بلباس واحد، وعلى هيئة واحدة، مستديرين حول بيت الله، مسبِّحين ومهلّلين ومكبّرين، يدعون ربَّهم الكريم ويناجونه ويسألونه ويبتهلون إليه، كلُّ واحد منهم يطوف أشواطاً سبعة، جميعهم يبتدئون من الحجر الأسود وينتهون إليه، والطواف هو الدوران حول الكعبة سبع مرّات تعبّداً لله بنيّة الطواف، مبتدئاً بالحجر الأسود ومنتهياً إليه، جاعلاً الكعبة عن يساره، والمسلمون إنَّما يفعلون ذلك طاعة لله واتباعاً لرسول الله ﷺ، وحظُّ كلّ واحد منهم من الكمال في هذه العبادة هو بحسب حظِّه من المتابعة للرسول الكريم ﷺ.

والطواف هو أوّل عمل يقوم به المسلم عندما يصل إلى مكة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: «**إنَّ أولَ شيء بدأ به حين قدم النبي ﷺ أنَّه توضّأ ثم طاف**»(١)، وروى مسلم في «صحيحه» عن جابر ابن عبد الله رضي الله عنه في صفة حجّة النبي ﷺ وفيه: «... **حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً**»(٢)، وروى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «**أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا طاف في الحج أو العمرة أولَ ما يقدم سعى ثلاثة أطواف ومشى أربعة، ثم سجد سجدتين [أي صلى ركعتين]، ثم يطوف بين الصفا والمروة**»(٣).

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم:١٦٤١)، و«صحيح مسلم» (رقم:١٢٣٥).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ٨٩٣).

(٣) «صحيح البخاري» (رقم: ١٦١٦)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٢٦١).

والأدلَّة على مشروعيَّة الطواف ببيت الله الحرام متظافرةٌ في الكتاب والسنة، وتواتر فيها النقل عن رسول الله ﷺ، وهذا فيه دلالة على أنَّ هذا العمل قُربة إلى الله وطاعة يحبها الله من عباده شرعها لهم وأمرهم بها ورغّبهم في فعلها، وجعلها منسكاً من مناسك قصد بيته الحرام، قال الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج ٢٧ ـ ٢٩]، وقد عهد الله إلى نبيّه وخليله إبراهيم وابنه نبي الله إسماعيل عليهما السلام أن يقوما بتطهير البيت وتشييد أركانه وتهيئته للطائفين والقائمين والركع السجود، قال الله تعالى: ﴿وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ [الحج: ٢٦].

وممَّا تقدّم يتبيّن أنَّ الطواف بالبيت العتيق عبادة جليلة وطاعة عظيمة، يحبّها الله من عباده، وشرعها لهم وأمرهم بها، ورتّب لهم على فعلهم لها الثواب العظيم والأجر الجزيل؛ بل إنَّ الطواف بالبيت ركن من أركان الحج، كما أنَّه أيضاً ركن من أركان العمرة، وهذا يدل على عِظم شأن الطواف عند الله ورفيع مكانته؛ إذ لا يتمُّ الحج إلاَّ به، ولا تتمُّ العمرة إلاَّ به.

ثمَّ إنَّ المسلم في هذا المقام العظيم يتلقى درساً عظيماً، وفائدة جليلة، وهو أنَّ هذه العبادة الجليلة ـ أعني الطواف ـ إنَّما شُرعت في هذا الموطن فقط حول بيت الله الحرام كما دلّت على ذلك النصوصُ المتقدّمةُ من الكتاب والسنة وغيرُها من النصوص، وهي كثيرة جدًّا، وبهذا يعلم المسلم أنَّ الطواف في غير هذا الموطن في أيِّ مكان من الدنيا لا يُشرع، وليس هناك ما يدلُّ على مشروعيته، بل هو ضلال وباطل، وتسوية لبيوت المخلوقين ببيت الخالق الذي أمر سبحانه بإقامته لذكره وطاعته، والتوجّه إليه في عبادته سبحانه، ولا خلاف بين أهل العلم في بطلان

الطواف في أي بقعة من البقاع، وفي أي مكان من الأمكنة سوى بيت الله الحرام، فلا يجوز الطواف حول القباب ولا القبور ولا الأضرحة ولا الأشجار ولا الأحجار ولا غيرها، والنقول عن أهل العلم في هذا الباب كثيرة جدًّا، ولعلِّي أشير إلى بعض كلامهم في ذلك بحسب ما يسمح به هذا المقام.

قال الإمام النووي رحمه الله في كتابه «المجموع شرح المهذّب»: «ولا يجوز أن يُطاف بقبره ﷺ ... ـ وذكر أموراً ثم قال ـ: ولا يُغترُّ بمخالفة كثيرين من العوام وفعلهم ذلك، فإنَّ الاقتداء والعمل إنَّما يكون بالأحاديث وأقوال العلماء، ولا يُلتفت إلى محدثات العوام وغيرهم وجهالاتهم، وقد ثبت في «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»(١)، وفي رواية لمسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»(٢)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ، فإنَّ صلاتَكم تبلغني حيثما كنتم**»، رواه أبو داود بإسناد صحيح(٣)، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله ما معناه: «اتَّبع طرقَ الهدى ولا يضرّك قلّةُ السالكين، وإيّاك وطرق الضلالة ولا تغترَّ بكثرة الهالكين»، ومن خطر بباله أنَّ المسحَ باليد ونحوه أبلغ في البركة، فهو من جهالته وغفلته؛ لأنَّ البركة إنَّما هي فيما وافق الشرع، وكيف يُبتغَى الفضلُ في مخالفة الصواب»، اهـ كلامه رحمه الله(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وقد اتفق المسلمون على أنَّه لا يُشرع الطواف إلاَّ بالبيت المعمور، فلا يجوز الطواف بصخرة بيت المقدس، ولا بحجرة النبي ﷺ، ولا بالقبة التي في جبل عرفات، ولا غيرِ ذلك»(٥).

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم: ٢٦٩٧)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٧١٨).

(٢) «صحيح مسلم» (رقم: ١٧١٨).

(٣) «سنن أبي داود» (رقم: ٢٠٤٢).

(٤) «المجموع شرح المهذب» (٨/ ٢٠٦ـ ٢٠٧).

(٥) «الفتاوى» (٤/ ٥٢٢).

وقال رحمه الله: «ليس في الأرض مكان يُطاف به كما يُطاف بالكعبة، ومن اعتقد أنَّ الطواف بغيرها مشروع فهو شرٌّ ممّن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة، فإنَّ النبي ﷺ لما هاجر من مكة إلى المدينة صلَّى بالمسلمين ثمانية عشر شهراً إلى بيت المقدس، فكانت قبلةَ المسلمين هذه المدة، ثمَّ إنَّ الله حوّل القبلة إلى الكعبة، وأنزل الله في ذلك القرآن كما ذكر في سورة البقرة، وصلَّى النبيُّ ﷺ والمسلمون إلى الكعبة وصارت هي القبلة، وهي قبلة إبراهيم وغيره من الأنبياء.

فمن اتّخذ الصخرةَ اليوم قبلة يصلِّي إليها فهو كافر مرتدٌّ يُستتاب، فإن تاب وإلاَّ قُتل، مع أنّها كانت قبلةً، لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتّخذها مكاناً يُطاف به كما يطاف بالكعبة، والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال ...»، إلى آخر كلامه رحمه الله[1].

وبهذا التحقيق الذي ذكره الإمام النووي وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرُهما من أهل العلم يتبيّن عِظمُ فساد الطواف بأيِّ مكان سوى بيت الله الحرام الذي أذن الله بالطواف حوله وشدّةُ خطره، وأمّا ما يفعله بعض الجهّال من الطواف حول القبور أو القِباب أو الأضرحة أو نحو ذلك فكلُّ ذلك ليس من دين الله؛ بل هو من وحي الشيطان ومن تشريع إبليس، وإلاَّ فأين في الكتاب والسنة: فليطّوفوا بقبر فلان أو بضريح فلان أو نحو ذلك، تعالى الله عمّا يصفون، وسبحان الله عمّا يشركون.

***

(١) «الفتاوى» (٢٧/ ١٠ ـ ١١).

السابع: تقبيل الحَجَر الأسود واستلام الرُّكن اليمانيّ

كان الحديث فيما سبق عن فضل الطواف ببيت الله الحرام، تلك العبادة العظيمة والطاعة الجليلة التي هي ركن من أركان الحج والعمرة، وأنّها إنَّما تُشرع في هذا المكان فقط، كما قال الله تعالى: ﴿وَلْيَطَّوَّفُواْ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾، فلا يجوز الطواف بالقِباب أو القبور أو الأضرحة وغيرها؛ لمصادمة هذا الأمر لأصول الشريعة ولمخالفته لحقيقة التوحيد، ولما فيه من تشريك المخلوق وتسويته بالخالق سبحانه، وقد مضى الحديثُ عن هذا الجانب مفصّلاً بعض الشيء، وأمَّا الحديث هنا فسيكون بإذن الله عن درس آخر وفائدة أخرى يفيدها المسلم حينما يصل إلى بيت الله الحرام ليطوف به؛ إذ يُشرع له في هذا المقام تقبيلُ الحجر الأسود، واستلامُ الركن اليماني طاعة لله واتّباعاً لرسول الله ﷺ، وقد وردت أدلّة عديدة فيها بيانُ مشروعية ذلك، وأنَّ النبي ﷺ فعله عندما قدم بيت الله الحرام.

روى البخاري ومسلم عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: **«رأيت رسول الله ﷺ حين يقدم مكَّة إذا استلم الركن الأسود أوَّل ما يطوف يخبُّ ثلاثة أطواف من السبع»**[1]، وروى مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «**لما قدم النبيُّ ﷺ مكَّةَ دخل المسجد فاستلم الحجر، ثم مضى على يمينه، فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً** ...»، الحديث[2].

وهكذا المسلمون يُقبِّلون الحجرَ من بعده اتّباعاً له ﷺ واقتداء بهديه ولزوماً لسنّته، لا لاعتقاد منهم أنَّ الحجر الأسود ينفع ويضرّ، أو يُعطي و يمنع، ولهذا قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما قبَّل الحجر الأسود: «**إنِّي لأعلم**

(١) «صحيح البخاري» (رقم: ١٦٠٣)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٢٦١).
(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ٨٩٣).

أَنَّك حجر ما تنفع ولا تضر، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبّلك ما قبّلتك»، رواه البخاري ومسلم[(١)].

قال ابن جرير الطبري رحمه الله: «إنّما قال ذلك عمر؛ لأنَّ الناس كانوا حديثي عهد بعبادة الأصنام، فخشي عمر أن يظنَّ الجهّال أنَّ استلام الحجر من باب تعظيم بعض الأحجار، كما كانت العرب تفعل في الجاهلية، فأراد عمر أن يعلم الناس أنَّ استلامَه اتِّباعٌ لفعل رسول الله ﷺ، لا لأنَّ الحجر ينفع ويضر بذاته، كما كانت تعتقده في الأوثان». اهـ كلامه رحمه الله[(٢)].

أمّا ما يُروى من حديث أبي سعيد: أنَّ عمر لما قال هذا قال له علي بن أبي طالب: «إنَّه يضر وينفع»، وذكر أنَّ الله لَّما أخذ المواثيق على ولد آدم كتب ذلك في رقٍّ وألقمه الحجر، قال: وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُؤتى يوم القيامة بالحجر الأسود وله لسان ذلق، يشهد لمن استلمه بالتوحيد»، فإنَّ هذا لا يثبت عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: «وفي إسناده أبو هارون العبدي، وهو ضعيف جدًّا»[(٣)]، فأبو هارون هذا، راوي هذا الأثر متروك الحديث عند أهل العلم، ومنهم من كذَّبه، قال النسائي فيه: «متروك الحديث»، وقال حماد ابن زيد: «كان أبو هارون العبدي كذاباً، بالغداة شيء وبالعشيِّ شيء»، وقال الجوزجاني: «كذاب مفتر»، وقال ابن حبَّان: «كان يروي عن أبي سعيد ما ليس من حديثه، لا يحل كَتْبُ حديثه إلاَّ على جهة التعجّب»[(٤)]، فكيف يُعتدُّ برواية من هذه حاله عند أهل العلم.

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم: ١٥٩٧)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٢٧٠).

(٢) نقله الحافظ في «الفتح» (٣/ ٤٦٣).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٤٦٢).

(٤) انظر: «تهذيب الكمال» للمزي (٢١/ ٢٣٢ ـ ٢٣٦).

ثمَّ إنَّ المشروع هو تقبيل الحجر الأسود فقط أو استلامه باليد إن لم يتمكّن من التقبيل، أو الإشارة إليه إن لم يتمكّن من الأمرين، وكذلك يُشرع استلام الركن اليماني، ففي «الصحيحين» عن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: «لم أَرَ رسول الله ﷺ يستلم من البيت إلاَّ الركنين اليمانيين»[(١)]، وبهذا يُعلم أنَّه لا يُشرع استلام شيء من البيت سوى الركنين اليمانين، وهما الحجر الأسود والركن اليماني.

قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «ولا يَستلم من الأركان إلاَّ الركنين اليمانيين دون الشاميين، فإنَّ النبي ﷺ إنَّما استلمهما خاصة؛ لأنَّهما على قواعد إبراهيم، والآخران هما داخل البيت، فالركن الأسود يُستلم ويُقبَّل، واليماني يُستلم ولا يُقبَّل، والآخران لا يُستلمان ولا يُقبَّلان، والاستلام هو المسح باليد، وأما سائر جوانب البيت ومقام إبراهيم وسائر ما في الأرض من مساجد وحيطانها ومقابر الأنبياء والصالحين كحجرة نبيّنا ﷺ ومغارة إبراهيم، ومقام نبيّنا ﷺ الذي كان يصلِّي فيه، وغير ذلك من مقابر الأنبياء والصالحين وصخرة بيت المقدس فلا تُستلم، ولا تُقبَّل باتِّفاق الأئمَّة»[(٢)].

ولهذا فإنَّ من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها المسلم في هذا المقام أنَّ التقبيل والاستلام لا يُشرع إلاَّ في هذا المكان؛ إذ لم تأت النصوص بمشروعية هذا العمل في غير هذين الموضعين، والمسلم إنَّما يقوم بذلك طاعة لله واتّباعاً لرسوله ﷺ، لا لاعتقاد منه أنَّ فيهما جلبَ نفع أو دفع ضرٍّ كما سبق بيان ذلك من خلال كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب التي قالها أمام الناس معلِّماً لهم وموجِّهاً عندما قبَّل الحجر الأسود.

وقد دلّت النصوص المتقدّمة على أنَّ التمسّح بحيطان الكعبة غيرِ الركنين اليمانيين وتقبيل شيء منها غير الحجر الأسود ليس بسنة، ودلّت أيضاً على أنَّ استلام

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم: ١٦٠٩)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٢٦٩).

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢٦/ ١٢١).

مقام إبراهيم وتقبيلَه ليس بسنّة؛ إذ لم يُؤثر عن النبي ﷺ شيء من ذلك، وإذا كان هذا لا يُشرع في الكعبة نفسها، ومعلوم أنَّ جميع المساجد والأماكن حرمتها دون الكعبة، ولا يُشرع في مقام إبراهيم الذي قال الله فيه: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، ومعلوم أنَّ مقام إبراهيم الذي بالشام وغيرها وسائر مقامات الأنبياء دون هذا المقام الذي أمر الله باتّخاذه مُصلّى، ومع ذلك لا يُشرع مسحه ولا تقبيله لعدم وجود دليل على مشروعية ذلك، فإنَّ سائر المقامات لا تُقصد للصلاة فيها، ولا يُتمسّح بها، ولا يقبّل شيء منها، بل لا يقبّل ما على وجه الأرض إلاَّ الحجر الأسود[1].

وأمّا ما يفعله بعض الجهّال الذين يتهافتون على الأضرحة والقباب وغيرها، فيقبّلونها ويتمسّحون بها، ويتبرّكون بها ويطلبون منها المدد والعون ونحو ذلك، فكلُّ ذلك ليس من الدين في شيء، بل هو من الضلال المبين والبهتان العظيم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأمّا التمسّحُ بالقبر أيّ قبر كان وتقبيلُه وتمريغُ الخدِّ عليه فمنهيٌّ عنه باتّفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمّتها، بل هذا من الشرك»[2].اهـ.

***

(١) انظر: «الفتاوى» لابن تيمية (١٧/ ٤٧٦).

(٢) «الفتاوى» (٢٧/ ٩١ ـ ٩٢).

الثامن: في بيان وجوب لُزوم السُّنَّة والأخذ بهدي الرسول ﷺ

إنَّ من الدروس العظيمة والفوائد الجليلة التي يفيدها الحاجُّ من حجِّهم لبيت الله الحرام معرفة أهميّة السنّة وضرورة التقيّد بها في جميع أعمال الحج، وهذا يظهر جليًّا في حال كثيرٍ من الحجّاج، فتراهم يُقبلون على مجالس الذِّكر وحلق العلم، ويُكثِرون من سؤال العلماء عن صفة الحج وكيفيته وأركانه وواجباته ونواقضه ومبطلاته باهتمام بالغ وتحرٍّ دقيق، ولا سيما من يستشعر في حجِّه قولَ النبيِّ ﷺ: «**خذوا عنِّي مناسككم**»[١]، فالحج لا يكون مقبولاً عند الله إلاَّ إذا أخذ المسلم فيه بطريقة الرسول ﷺ، ولزم فيه هديَه، واقتدى فيه بسنّتِه دون إفراطٍ أو تفريطٍ، ودون غلوٍّ أو جفاءٍ، ودون زيادةٍ أو تقصيرٍ، فإذا ألزم المسلمُ نفسَه في حجّه بسنّة النبي ﷺ، وقيّدها بهديه أفاد من ذلك أنَّ لزوم السنة واتِّباع الهدي مأمور به في كلِّ طاعة، فكما أنّه متحتِّم في الحج على كلِّ أحد الأخذ بمناسكه ﷺ، فإنَّه متحتِّم على كلِّ أحد الأخذ بهديه في كلِّ طاعة، ولهذا قال ﷺ في شأن الصلاة: «صلّوا كما رأيتموني أصلِّي»[٢]، وقال عموماً في شأن كلِّ طاعة: «**مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ**»[٣]، وفي رواية: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»[٤].

فكل عمل لا يكون على هدي الرسول ﷺ فإنَّ الله لا يقبله كما دلَّ على ذلك منطوق قوله ﷺ: «**مَن عمل عملاً ليس عليه أمرُنا فهو ردٌّ**»، فإنَّه يدل على أنَّ كلَّ بدعة أُحدثت في الدين ليس لها أصل في الكتاب ولا في السنة، سواء كانت من البدع العلميَّة القوليَّة أو من البدع العملية التعبّدية، فمن أخبر بغير ما أخبر الله به ورسوله ﷺ أو تعبَّد بشيء لم يأذن الله به ولا رسوله ﷺ ولم يشرعه، فإنَّه يكون

---

(١) «صحيح مسلم» (رقم: ١٢٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم: ٦٣١).

(٣) «صحيح مسلم» (رقم: ١٧١٨).

(٤) «صحيح البخاري» (رقم: ٢٦٩٧)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٧١٨).

مردوداً على صاحبه غير مقبول، كما أنَّ الحديث يدلُّ بمفهومه أنَّ من عمل عملاً عليه أمر الله ورسوله، وهو التعبّد لله بالعقائد الصحيحة والأعمال الصالحة من واجب ومستحب، فعملُه مقبول وسعيُه مشكور.

وروى أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرُهم عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: «**صلَّى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم، ثم أقبل علينا بوجهه، فوعظنا موعظةً بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، كأنَّها موعظة مودِّع فأوصِنا. فقال: أوصيكم بتقوى الله ﷻ والسمع والطاعة وإن تأمَّر عليكم عبد، فإنَّه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضُّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ بدعة ضلالة**»[(١)].

وقوله ﷺ في هذا الحديث: «**كلَّ بدعة ضلالة**» هو من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله ﷺ: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»، فكلُّ مَن أحدث شيئاً ونسبه إلى الدين ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالةٌ، والدين بريء منه، وهو مردود على صاحبه غير مقبول منه، فدِين الله مبنيٌّ على أصلين عظيمين وأساسين متينين.

أحدهما: ألاَّ نعبد إلاَّ الله وحده لا شريك له.

والثاني: أن لا نعبده إلاَّ بما شرعه على لسان رسوله ﷺ، لا نعبده بالأهواء والبدع، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝١٨ إِنَّهُمۡ لَن يُغۡنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١]، فليس لأحدٍ أن يعبدَ الله إلاَّ بما شرعه رسوله ﷺ من واجب ومستحب، لا نعبده بالأمور المحدثة

(١) «سنن أبي داود» (رقم: ٤٦٠٧)، و«جامع الترمذي» (رقم: ٢٦٧٦)، و«سنن ابن ماجه» (رقم:٤٢، ٤٤).

المبتدعة التي لا أصل لها في الدين ولا أساس لها من الشرع، وليس لأحدٍ أن يعبد إلاَّ الله وحده، فلا يُصلَّى إلاَّ لله، ولا يُصام إلاَّ له، ولا يُحجُّ إلاَّ إلى بيته، ولا يُتوكَّل إلاَّ عليه، ولا يصرف شيء من العبادة إلاَّ له(١)، وقد جمع الله بين هذين الأصلين العظيمين في قوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، فالعمل الصالح هو الموافق للشرع المطهّر، والخالصُ هو الذي لم يُرد به إلاَّ وجه الله، وهما ركنَا العمل المتقبّل، فإنَّ العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يُقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يُقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السُّنَّة.

فالواجب على كلِّ مسلم يرجو لنفسه الفوز والسعادة في الدنيا والآخرة أن يُلزم نفسَه بهدي الرسول ﷺ، وأن يقيّد عملَه بسنَّته، وأن يحذرَ تمام الحذر من مفارقة هديه، ومخالفة سنّته واتِّباع غير سبيله؛ إذ هو صلوات الله وسلامه عليه القدوةُ والأسوة لأمَّته، كما قال الله تعالى في شأنه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، أي: «هو أحقُّ بهم في كلِّ أمور الدين والدنيا، وأولى بهم من أنفسهم فضلاً عن أن يكون أولى بهم من غيرهم، فيجب عليهم أن يؤثروه بما أراده من أموالهم وإن كانوا محتاجين إليها، ويجب عليهم أن يحبُّوه زيادة على حبِّهم لأنفسهم، ويجب عليهم أن يقدِّموا حكمه عليهم على حكمهم لأنفسهم، وبالجملة فإذا دعاهم النبي ﷺ بشيء ودعتهم أنفسُهم إلى غيره وجب عليهم أن يقدِّموا ما دعاهم إليه ويؤخِّروا ما دعتهم أنفسُهم إليه، ويجب عليهم أن يطيعوه فوق طاعتهم لأنفسهم، ويقدِّموا طاعته على ما تميل إليه أنفسهم وتطلبه خواطرُهم»(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١/ ٨٠ ـ ٨١).

(٢) فتح القدير (٤/ ٢٦١).

ولا ريب أنَّ هذا يتطلّب من المسلم اجتهاداً في معرفة السنة، وبذلاً للوقت في سبيل معرفة هدي الرسول ﷺ، وذلك عن طريق سؤال أهل العلم والجلوس في حلق الذِّكر التي يبيّن فيها الحلالُ والحرام، وقراءة الكتب النافعة والمؤلفات المفيدة المشتملة على بيان ذلك، ليتسنّى للمسلم بعد ذلك القيامُ بالعبادة على وجه صحيح ونهج سليم، موافقٍ لهدي الرسول الكريم ﷺ.

***

التاسع: في يوم عرفة

لا ريب أنَّ يوم عرفة يومٌ عظيمٌ من أيام الله المباركة، ومجمعٌ كبيرٌ من مجامع الخير والإيمان والتقوى، وموسمٌ رحبٌ جليلٌ من مواسم الطاعة والعبادة، يومٌ تكثر فيه العبرات، وتتوالى فيه الدعوات، وتتنزّل فيه الرحمات، وتُقال فيه العثرات، وتُغفر فيه الزلاّت، يوم رجاء وخشوع، وذلّ وخضوع، إنَّه يومٌ كريمٌ مباركٌ، لم تطلع الشمس على يوم أفضل منه، قد خُصَّ بمزايا كريمةٍ، وخصائصَ عظيمةٍ، وصفاتٍ جليلةٍ، ليس من اليسر حصرها، ولا من الممكن استقصاؤها.

إنَّه اليوم الذي أكمل الله فيه لهذه الأمة الدين، وأتمَّ فيه لهم النعمة؛ إذ فيه نزل قول الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، ولم ينزل بعدها حلال ولا حرام.

روى البخاري ومسلم عن طارق بن شهاب قال: **«جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّكم تقرؤون آية في كتابكم، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتّخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: وأيُّ آية؟ قال: قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾، فقال عمر: والله إني لأعلم اليوم الذي نزلت فيه على رسول الله ﷺ والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، عشية عرفة في يوم جمعة»**(١).

وفي هذا اليوم الكريم المبارك يكثر عُتقاء الله من النار، ويجود فيه على عباده المؤمنين، ويباهي بهم ملائكته المقرّبين، روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النبي ﷺ قال: **«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنَّه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء»**(٢).

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم: ٤٦٠٦)، و«صحيح مسلم» (رقم: ٣٠١٧).

(٢) «صحيح مسلم» (رقم: ١٣٤٨).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وهذا يدل على أنّهم مغفورٌ لهم؛ لأنّه لا يُباهي بأهل الخطايا والذنوب إلاّ من بعد التوبة والغفران»(١).

وروى الإمام أحمد في «مسنده» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى يُباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة، يقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثاً غبراً»(٢).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في مِيمِيَّته الشهيرة:

فللّه ذاك الموقفُ الأعظمُ ... كموقف يوم العرض بل ذاك أعظم
ويدنو به الجبَّار جلَّ جلاله ... يباهي بهم أملاكَه فهو أكرم
يقول: عبادي قد أتوني محبّة ... وإنِّي بهم أجود وأرحم
فأُشهدكم أنّي قد غفرتُ ذنوبَهم ... وأعطيتهم ما أملوه وأنعم
فبُشراكم يا أهل ذا الموقف الذي ... به يغفر الله الذنوب ويرحمُ

وَقَف الفضيل بن عياض رحمه الله بعرفة فنظر إلى نشيج الناس وبكائهم عشيَّة عرفة فقال: «أرأيتم لو أنَّ هؤلاء صاروا إلى رجل فسألوه دانِقاً، أكان يرُدُّهم؟ قالوا: لا، قال: والله، لَلمغفرةُ عند الله أهونُ من إجابة رجل لهم بدانِق»(٣).

وعن عبد الله بن المبارك قال: «جئت إلى سفيان الثوري عشية عرفة وهو جاثٍ على ركبتيه، وعيناه تهملان، فبكيت، فالتفت إليّ فقال: ما شأنك؟ فقلت: من أسوأ هذا الجمع حالا؟ قال: الذي يظن أن الله لا يغفر لهم»(٤).

ولهذا فإنَّه ينبغي للمسلم الراغب في الربح والمغنم في هذا اليوم المبارك أن يكون مخبتاً لربّه سبحانه، متواضعاً له، خاضعاً لجنابه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمته

(١) «التمهيد» (١/ ١٢٠).
(٢) «المسند» (٢/ ٢٢٤).
(٣) «مجلسٌ في فضل يوم عرفة» لابن ناصر الدين الدمشقي (ص: ٦٣).
(٤) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «حسن الظن بالله» (ص/ ٩٢).

ومغفرته، ويخاف عذابه ومقته، تائباً إليه من كلِّ ذنب اكتسبته يداه، وكلِّ خطيئة مشت إليها قدماه، غيرَ مضيّع لوقته في هذا الموقف العظيم بالذهاب هنا وهناك، أو بالحديث مع هذا وذاك، بل يكون مقبلاً على ربّه ومولاه، مكثراً من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرّع، وقد ثبت في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**خير الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخير ما قلته أنا والنبيّون من قبلي: لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير**»(١)، فيوم عرفة يوم الدعاء، وأفضل الذِّكر لا إله إلا الله، فكان ﷺ يُكثر من أفضل الذِّكر في أفضل الأيام؛ لأنَّ سيّد الأيام هو يوم عرفة، وسيّد الأذكار هو لا إله إلا الله، فالإكثار من سيّد الأذكار في سيّد الأيام هو في غاية المناسبة والتوافق.

إنَّ لا إله إلا الله هذه الكلمةَ العظيمةَ التي كان رسول الله ﷺ يُكثر من قولها في يوم عرفة هي أفضلُ الكلمات، وأجلُّها على الإطلاق، وهي العروة الوثقى وكلمة التقوى ومفتاح دار السعادة، وأصل الدين وأساسه، ورأس أمره؛ لأجلها قامت الأرض والسموات، وخُلقت الخليقة وأُرسلت الرسل وأنزلت الكتب، وفضائل هذه الكلمة وموقعها من الدين فوق ما يصفه الواصفون ويعرفه العارفون، بل لها من الفضائل والمزايا ما لا يخطر ببال، ولا يدور في خيال.

لكن يجب على المسلم أن يعلم أنَّ لا إله إلا الله لا تُقبل من قائلها بمجرّد نطقه لها بلسانه فقط دون قيام منه بحقّها وفرضها، ودون استيفاء لأُسسها وشروطها، فليست لا إله إلا الله اسماً لا معنى له، أو قولاً لا حقيقة له، أو لفظاً لا مضمون له، بل إنَّ لهذه الكلمة العظيمة مدلولاً لا بدّ من فهمه، ومعنى لا بدّ من ضبطه، وغايةً لا بدّ من تحقيقها؛ إذ غير نافع بإجماع أهل العلم النطق بهذه الكلمة من غير فهم لمعناها، ولا عمل بما تقتضيه، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، أي: إلاَّ من شهد بلا إله إلا الله

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (رقم: ٣٥٨٥) من حديث عبد الله ابن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٧، ٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

وهم يعلمون بقلوبهم معنى ما شهدوا به بألسنتهم.

وهذا ولا شك أمرٌ في غاية الأهمية يجدر بكلِّ مسلم أن يُعنى به غاية العناية، ويهتمّ به تمام الاهتمام؛ إذ إنَّ لا إله إلا الله لا تنفع إلاَّ من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد بذلك وعمل به، أمَّا من قالها وعمل بها ظاهراً من غير اعتقاد فهو المنافق، وأمَّا من قالها وعمل بضدّها وخلافها من الشرك فهو الكافر، وكذلك من قالها وارتدّ عن الإسلام بإنكار شيء من لوازمها وحقوقها فإنَّها لا تنفعه ولو قالها ألف مرّة، وكذلك من قالها وهو يصرف أنواعاً من العبادة لغير الله كأن يدعوَ غيرَ الله أو يستغيث بغيره أو يطلبَ من غيره المدَدَ والعونَ والنَّصر فيما لا يقدر عليه إلاَّ الله، ونحوَ ذلك، فمن صرف مما لا يصلح إلاَّ لله من العبادات لغير الله فهو المشرك بالله العظيم، ولو نطق بلا إله إلا الله؛ إذ إنَّ هذه الكلمة العظيمة تعني إخلاص العبادة كلِّها لله وعدمَ الإشراكِ به، والإقبالَ على الله وحده لا شريك له خضوعاً وتذلّلاً، وطمعاً ورَغباً، وإنابةً وتوكّلاً، ودعاءً وطلباً، فصاحب لا إله إلا الله لا يسأل إلاَّ الله، ولا يستغيث إلاَّ بالله، ولا يتوكل إلاَّ على الله، ولا يرجو غير الله ولا يذبح إلاَّ لله، ولا يصرف شيئاً من العبادة لغير الله، ويكفر بجميع ما يعبد من دون الله، ويبرأ إلى الله من ذلك[1].

* * *

(١) انظر: «تيسير العزيز الحميد» (ص: ٧٨).

العاشر: وجوب الإخلاص لله في الذبح

إنَّ من أيَّام الله العظيمة يومُ النّحر، اليومُ العاشر من ذي الحجة يومُ عيد الأضحى المبارك، وقد سمّي هذا اليوم بيوم النّحر لأنَّ المسلمين يتقرّبون فيه إلى الله بنحر بهيمة الأنعام، فالحجاج في هذا اليوم ينحرون هداياهم، والمسلمون في شتى بقاع الأرض ينحرون ضحاياهم، أولئك يتقرّبون إلى الله بنحر الهدايا وهؤلاء يتقرّبون إلى الله بنحر الضحايا، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ ۗ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الحج: ٣٤ ـ ٣٧]، أي: ليس المقصودُ ذبحَها فقط بل إنّما شَرع لكم نَحرَ هذه الهدايا والضحايا لتذكروه عند ذبحها، فإنَّه الخالق الرازق لا أنَّه يناله شيء من لحومها ولا دمائها فإنَّه تعالى هو الغني عمّا سواه ﴿وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ أي: الإخلاصُ فيها والاحتساب والنيّة الصالحة وابتغاء وجه الله بالعمل، وفي هذا أعظم حثٍّ وترغيبٍ على الإخلاص في النّحر وأن يكون القصد فيه وجه الله وحده، إذ إنَّ الله تعالى لا يقبل من الأعمال إلاّ الخالص الذي لا يُبتغى فيه إلاّ وجهه سبحانه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: «يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه أنَّه مخالف لهم في ذلك، فإنَّ صلاته لله ونُسكه على اسمه وحده لا شريك له، وهذا كقوله تعالى ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: أَخلص له صلاتك وذبيحتك، فإنَّ المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها،

فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عمّا هم فيه والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى، قال مجاهد في قوله ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ قال: «النسك: الذبح في الحج والعمرة».

وقال الثوري عن السدّي عن سعيد بن جبير ﴿وَنُسُكِي﴾ قال: «ذبحي»، وكذا قال السدّي والضحَّاك» ا.هـ[(١)].

والذبح عبادة عظيمة من أنواع العبادات التي يتقرّب بها المسلمون إلى ربِّهم ﷻ نُسُكاً لله تعالى من هَديٍ أو أُضحيةٍ أو عقيقةٍ أو نذر أو غير ذلك، فلا يجوز صرفُ هذه العبادة لغير الله كما لا يجوز صرفُ أيِّ عبادةٍ لغيره سبحانه، وقد ثبت في الصحيح من حديث أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: حدّثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «**لعن الله مَن ذبح لغير الله، ولعن الله مَن لعن والديه، ولعن الله من آوى مُحدِثاً، ولعن الله من غيَّرَ منارَ الأرض**»[(٢)].

واللّعنُ هو الطردُ والإبعاد من رحمة الله، وأخطرُ هذه الأمور الأربعة التي يستحقُّ فاعلها هذه العقوبة هو الذّبح لغير الله؛ ولهذا بدأ به رسول الله ﷺ، ممّا يدلّ على الخطورة البالغة لهذا الأمر، إذ إنَّ الذّبح لغير الله شركٌ، والأمورُ المذكورةُ معه في الحديث إنَّما هي من كبائر الإثم ولا تصل إلى رتبة الشرك، وكلُّ ذبحٍ لغير الله شركٌ ولو كان المذبوحُ المتقرّب به تافهاً حقيراً كالذباب ونحوه فكيف بمن يقرِّب نفائس الأنعام وأطايبها.

روى الإمام أحمد في «الزهد»، وأبو نعيم في «الحلية» وغيرهما عن سلمان الفارسي رضي الله عنه موقوفاً عليه بإسنادٍ صحيحٍ أنَّه قال: «**دخل رجلٌ الجنّةَ في ذباب ودخل آخرُ النّارَ في ذباب، قالوا: وكيف ذاك؟ قال: مرّ رجلان ممّن كان قبلكم على ناس معهم صنمٌ لا يمرّ بهم أحدٌ إلاّ قرَّب لصنمهم، فقالوا لأحدهما: قرِّب**

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٧٧).

(٢) «صحيح مسلم» (رقم: ١٩٧٨).

شيئاً، قال: ما عندي شيء، قالوا: قرِّب ولو ذباباً فقرّب ذباباً ومضى فدخل النّار، وقالوا للآخر: قرِّب، قال: ما كنتُ لأُقرِّب لأحدٍ شيئاً دون الله ﷻ فضربوا عنقه فدخل الجنّة»[١].

وهذا ممّا يبيّن عظم الشرك وشدّة خطره ولو في الشيء القليل وأنّه يوجبُ النّار، فهذا الرجل الأوّل لما قرّب لهذا الصنم أرذل الحيوان وأخسّه وهو الذباب كان جزاؤه النّار؛ لإشراكه في عبادة الله، فإذا كان هذا فيمن قرّب ذباباً، فكيف بمن يستسمن الإبل وغيرَها ليتقرَّب بنحرها لمن كان يعبده من دون الله مِن قبرٍ أو مشهد أو حجر أو شجر أو غير ذلك.

قال الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه «شرح الصدور»: «ومن المفاسد البالغة إلى حدّ يرمي بصاحبه إلى وراء حائط الإسلام، ويلقيه على أمِّ رأسه من أعلى مكان الدين أنَّ كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر متقرّباً به إليه راجياً ما يضمر حصوله منه، فيهلّ به لغير الله، ويتعبّد به لوثنٍ من الأوثان، إذ إنَّه لا فرق بين النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثناً، وبين قبر لميِّت يسمونه قبراً، ومجرّد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئاً، ولا يؤثر تحليلاً ولا تحريماً، فإنَّ مَن أطلق على الخمر غير اسمها وشربها كان حكمه حكم من شربها وهو يسميها باسمها، بلا خلاف بين المسلمين أجمعين.

ولا شكّ أنَّ النّحر نوعٌ من أنواع العبادة التي تعبّد الله العباد بها، كالهدايا والفدية والضحايا، فالمتقرِّب بها إلى القبر والناحر لها عنده لم يكن له غرض بذلك إلاّ تعظيمه وكرامته واستجلاب الخير منه واستدفاع الشرّ به، وهذه عبادة لا شك فيها، وكفاك من شرّ سماعه ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم، وإنّا لله وإنّا إليه راجعون، والنبي ﷺ يقول: «**لا عقر في الإسلام**»، قال عبد الرزاق [الصنعاني]: «كانوا يعقرون عند القبر، يعني: بقراً وشياهاً» رواه أبو داود بإسناد صحيح عن

---

(١) «الزهد» (ص: ٣٢، ٣٣)، و«الحلية» (١/ ٢٠٣).

أنس ابن مالك رضي الله عنه» . ا.هـ كلام الإمام الشوكاني رحمه الله[(١)].

وقد أبلغ فيه رحمه الله بالنصيحة وأحسن في التحذير من هذا الأمر الخطير، فنسأل الله الكريم أن يقيَنا جميعاً من الوقوع في شيء من ذلك، وأن يجعلَ أعمالنا كلّها خالصة لوجهه الكريم، مطابقة لسنّة نبيّه محمد ﷺ إنّه جوادٌ كريم.

* * *

(١) «شرح الصدور» للشوكاني ـ ضمن «الجامع الفريد» (ص/ ٥٢٩ ـ ٥٣٠).

الحادي عشر: في حلق الرأس

إنَّ أعمـال يوم النحر اليوم العاشر من ذي الحجة أربعةُ أعمال معلومةٍ مشهورةٍ، وهي الرمي، ثمَّ النحر، ثمَّ الحلق، ثمَّ الطواف، والحديث هنا سيكون عن حلق الرأس أو تقصيره تعبّداً لله وطاعةً له وتقرّباً إليه في هذا اليوم العظيم، والحلق هو إزالةُ شعر الرأس كاملاً، والتقصير هو التخفيف من شعر الرأس كلِّه، والحلق أو التقصير واجب من واجبات الحج والعمرة، لا يجوز تركه، والدليل قوله تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، قال ابن قدامة رحمه الله: «ولو لم يكن من المناسك لما وصفهم به»(١).

روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «**لما قدم النبي ﷺ مكة أمر أصحابه أن يطوفوا بالبيت وبالصفا والمروة، ثم يحلّوا ويحلقوا أو يقصروا**»(٢)، فهو واجب من واجبات الحج والعمرة، فمن لم يحلق أو يقصر لزمه جبران هذا الواجب بدم، وهو إشعارٌ بانتهاء مدّة الإحرام واقتداء بفعل الرسول عليه الصلاة والسلام حيث حلق رأسه وأمر أصحابه بالحلق إلقاء للتفث وإزالة للشعث، وهو وضع للنواصي بين يدي ربّها خضوعاً لعظمته وتذلّلاً لعزّته، وهو من أبلغ أنواع العبودية لله ﷻ.

وعندما يقوم المسلم بهذه الطاعة العظيمة والعبادة الجليلة امتثالاً لله واتباعاً لرسول الله ﷺ يجب عليه أن يعلم أنَّ حلق الرأس أو تقصيره على وجه التعبّد والتقرّب لا يجوز القيام به لغير الله سبحانه وتعالى.

وقد سئل الإمام الجليل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن أقوام يحلقون رؤوسهم على أيدي الأشياخ، وعند القبور التي يعظِّمونها ويعدّون ذلك قُربة

---

(١) «المغني» (٥/ ٣٠٥).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم: ١٧٣١).

وعبادة: هل هذا سُنَّة أو بدعة؟ وهل حلق الرأس مطلقاً سُنَّة أو بدعة؟ فقال رحمه الله: «حلق الرأس على أربعة أنواع:

أحدها: حلقه في الحجِّ والعمرة فهذا ممّا أمر الله به ورسوله ﷺ، وهو مشروع ثابت بالكتاب والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقد تواتر عن النبي ﷺ أنّه حلق رأسه في حجّه وفي عمره، وكذلك أصحابه، منهم مَن حلق ومنهم من قصّر، والحلق أفضل من التقصير؛ ولهذا قال ﷺ: «**اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: اللّهمَّ اغفر للمحلّقين. قالوا: يا رسول الله والمقصرين؟ قال: والمقصرين**»(١)، وقد أمر الصحابةَ الذين ساقوا الهدي في حجَّة الوداع أن يقصِّروا رؤوسهم للعمرة إذا طافوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، ثم يحلقوا إذا قضوا الحج، فجمع لهم بين التقصير أولاً وبين الحلق ثانيا.

والنوع الثاني: حلق الرأس للحاجة، مثل أن يحلقه للتداوي، فهذا أيضاً جائز بالكتاب والسنَّة والإجماع، فإنَّ الله رخّص للمحرم الذي لا يجوز له حلق رأسه أن يحلقه إذا كان به أذى كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقد ثبت باتفاق المسلمين حديثُ كعب بن عجرة لما مرَّ به النبي ﷺ في عمرة الحديبية والقمل يتهافت من رأسه فقال: «**أيؤذيك هوامّك؟ قال: نعم. فقال: احلق رأسك، وانسك بشاة، أو صُم ثلاثة أيام، أو أطعم فَرَقاً بين ستة مساكين**»(٢)، وهذا الحديث متّفقٌ على صحّته متلقّى بالقَبول من جميع المسلمين.

---

(١) «صحيح البخاري» (رقم: ١٧٢٧)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٣٠١).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم: ١٨١٤)، و«صحيح مسلم» (رقم: ١٢٠١).

والنوع الثالث: حلقه على وجه التعبّد والتديّن والزهد من غير حج ولا عمرة، مثل ما يأمر بعض الناس التائب إذا تاب أن يحلق رأسه، ومثل أن يُجعلَ حلقُ الرأس شعارَ أهل النسك والدين أو من تمام الزهد والعبادة، أو يُجعلَ من يحلق رأسَه أفضلَ ممّن لم يحلقه، أو أدين، أو أزهد، أو أنَّ يقصر من شعر التائب كما يفعل بعض المنتسبين إلى المشيخة إذا توَّب أحداً أن يقص بعض شعره، ويعين الشيخ صاحب مقص وسجادة فيجعل صلاته على السجادة، وقصّه رؤوس الناس من تمام المشيخة التي يصلح بها أن يكون قدوة يتوِّب التائبين، فهذا بدعة لم يأمر الله بها ولا رسوله ﷺ، وليست واجبة ولا مستحبّة عند أحد من أئمة الدين، ولا فعلها أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا شيوخ المسلمين المشهورين بالزهد والعبادة، لا من الصحابة ولا من التابعين ولا تابعيهم ومن بعدهم ... وقد أسلم على عهد النبي ﷺ من أسلم[1]، ولم يكن يأمرهم بحلق رؤوسهم إذا أسلموا، ولا قصّ النبي ﷺ رأس أحد، ولا كان يصلي على سجادة، بل كان يصلِّي إماماً بجميع المسلمين يصلِّي على ما يصلّون عليه، ويقعد على ما يقعدون عليه، لم يكن متميّزاً عنهم بشيء يقعد عليه لا سجادة ولا غيرِه ... ومن اعتقد البدع التي ليست واجبة ولا مستحبّة قربة وطاعة وطريقاً إلى الله، وجعلها من تمام الدين ومما يُؤمر به التائب والزاهد والعابد فهو ضال خارج عن سبيل الرحمن، متّبع لخطوات الشياطين».

ثم ذكر رحمه الله النوع الرابع من الحلق، وهو أن يحلق رأسه في غير النسك لغير حاجة ولا على وجه التقرب والتديّن، وذكر أنَّ لأهل العلم فيه قولين، هما روايتان عن الإمام أحمد:

أحدهما: أنّه مكروه، وهو مذهب مالك وغيره.

والثاني: أنّه مباح، وهو المعروف عند أصحاب أبي حنيفة والشافعي.

ثم ذكر رحمه الله ما احتجَّ به أهل كلِّ قول[2].

---

(١) في الأصل: «جميع من في الأرض».

(٢) «مجموع الفتاوى» (٢١/١١٦ ـ ١١٩).

وذكر الإمام ابن القيّم نحو هذا التقسيم المتقدّم في كتابه «زاد المعاد»، وذكر أنَّ من أنواع حلقِ الرأس ما هو بدعة وشرك، وهو حلق الرأس لغير الله سبحانه كما يحلقها المريدون لشيوخهم، فيقول أحدهم: أنا حلقت رأسي لفلان، وأنت حلقته لفلان، وهذا بمنزلة أن يقول: سجدتُ لفلان، فإنَّ حلق الرأس خضوع وعبودية وذلّ؛ ولهذا كان من تمام الحج.

ثم ذكر رحمه الله أنَّ شيوخ الضلال زيّنوا لمريديهم حلق رؤوسهم لهم كما زيّنوا لهم السجود لهم(١)، وكلُّ ذلك من الشِّرك المبين، ومن البهتان العظيم، نسأل الله السَّلامة.

* * *

(١) «زاد المعاد» (٤/ ١٥٩ ـ ١٦٠).

الثاني عشر: الإخلاص لله في الدعاء

إنَّ من العبادات العظيمة التي يكثرُ إقبالُ المسلمين عليها في الحج وتعظمُ عنايتُهم بها فيه، الدعاءَ الذي هو أجلُّ أنواع العبادة وأفضلُها، وقد وصفه ﷺ في الحديث الصحيح بأنَّه هو العبادة؛ لِعظم مكانه منها ولِرفعة شأنه فيها، ولذا وردت النصوصُ الكثيرةُ في القرآن والسنة الدالَّةُ على عظيم شأنه ورفيع مكانته، والمشتملةُ على التنويه به والحثِّ عليه والترغيبِ فيه بوجوهٍ مختلفةٍ من الدلالة بالأمر به تارةً، وببيانِ مكانته ومنزلته تارةً، وبالثناءِ على أهله والقائمينَ به أُخرى، وبذكرِ عظم ثوابهم وتنوُّع أجورهم تارة، وبالتحذير في بعض المواطن من التهاون به أو الاستكبار عنه.

يقول الله تعالى: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦]، ويقول تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥]، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ويقول تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، والآياتُ في هذا المعنى كثيرةٌ.

وممّا يزيد في اهتمام الحجّاج بالدعاء ويُقوِّي إقبالَهم عليه في الحجِّ أنَّه قد اجتمع لهم فيه فضلُ المكان وشرفُه مع فضلِ الزمان وشرَفِه مع ما يعتري أيضاً قلوبَهم إذ ذاكَ من الرِّقَّة والخشوع والإقبال على الله ﷻ ولا سيما في يومِ عرَفةَ الذي هو أعظمُ الأيّام وأشرفُها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فإنَّه من المعلوم أنَّ الحجيجَ عشيَّةَ عرفةَ ينزلُ على قلوبهم من الإيمان والرّحمة والنُّور والبرَكة ما لا يمكنُ التعبيرُ به» ا.هـ[1].

---

(١) «مجموع الفتاوى» (٥/ ٣٧٤).

ولذا ثبت عن النَّبيِّ ﷺ في تعظيم شأن الدعاء يومَ عرَفةَ وبيانِ فضله أنَّه قال: «خيرُ الدعاء دعاءُ يومِ عرفة»(١).

قال ابن عبد البر رحمه الله: «وفيه ـ أي: هذا الحديث ـ من الفقه أنَّ دعاءَ يوم عرفة أفضلُ من غيره ... وفي الحديث دليلٌ على أنَّ دعاءَ يوم عرفة مجابٌ كلُّه في الأغلب» ا.هـ(٢).

وفي الحج أمكنةٌ خاصةٌ ينبغي للمسلم أن يقف بها ويتحرّى الدعاء فيها، اقتداءً بالنبي ﷺ حيث ثبت عنه أنَّه كان يقفُ فيها ويستقبلُ القِبلة ويدعو الله ﷻ، وهي بالأخصِّ ستّة أماكن: في عرَفة كما تقدّم، وفي المشعر الحرام كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وعلى الصَّفا والمروة لما ثبت في «صحيح مسلم» من حديث جابر رضي الله عنه: **«أنَّ النبي ﷺ كان إذا وقف على الصفا يُكبِّر ثلاثاً ويقول: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمدُ وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، يصنع ذلك ثلاث مرّات ويدعو، ويصنع على المروة مثل ذلك»**(٣).

ويقف بعد رمي الجمرتين الصغرى والوسطى لما ثبت في صحيح البخاري: «أنَّ عبدَ الله ابن عمر رضي الله عنهما كان يرمي الجمرة الدنيا بسبع حصياتٍ يكبِّر على إثرِ كلِّ حصاةٍ، ثمّ يتقدّم حتى يُسْهلَ فيقومُ مستقبلَ القِبلة، فيقومُ طويلاً ويدعو ويرفعُ يديه، ثمّ يرمي الوسطى، ثمّ يأخذ ذات الشمال فيسهل ويقومُ مستقبلَ القِبلة، فيقومُ طويلاً ويدعو ويرفعُ يديه ويقوم طويلاً، ثمّ يرمي جمرة العقَبة من بطن الوادي، ولا يقفُ عندها، ثمَّ ينصرفُ فيقول: هكذا رأيتُ النبيَّ ﷺ يفعله»(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي في «الجامع» (رقم: ٣٥٨٥) من حديث عبد الله بن عمرو. وحسنه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٧، ٨)، وقال: «الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد».

(٢) «التمهيد» (٦/ ٤١).

(٣) انظر: «صحيح مسلم» (رقم: ١٢١٨).

(٤) «صحيح البخاري» (رقم: ١٧٥١).

فهذه ستّةُ مواضعَ ثبت أنَّ النبي ﷺ يقف فيها ويتحرّى الدعاء، ويرفعُ يديه، وعموماً فالدعاء له شأنٌ عظيمٌ ومنزلةٌ عاليةٌ في الحج، بل إنَّ له شأناً بالغاً في العبادات كلّها، بل هو روح العبادة ولُبُّها وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدعاء هو العبادة**»[1].

وإذا كان الدعاء بهذه المنزلة الرفيعة من الدين، وبهذه الرتبة العالية منه، فإنَّ الواجب على المسلم أن تكون عنايتُه بالدعاء عظيمةً، واهتمامه به بالغاً، وأن يكون متقيّداً بشروطه، متأدّباً بآدابه، حذراً من الوقوع في شيء من موانع إجابته، متحريًّا الأوقات الفاضلة لقبوله، وأهمّ ما ينبغي ملاحظته في هذا الباب العظيم أن يكون دعاء المسلم خالصاً لله ﷻ فلا يدعو إلاَّ الله، ولا يستغيث إلاَّ بالله، ولا يطلب المدد والعون والنصر والشفاء إلاَّ من الله، ولا يستعين إلاَّ بالله؛ لأنَّ الدعاء كما تقدّم هو العبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك أكبر، ناقلٌ من الملَّةِ والعياذ بالله، قال الله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [يونس: ١٠٦، ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [غافر: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]، والآيات في هذا المعنى كثيرة.

ومن آداب الدعاء ما ذكره الله تعالى في قوله: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥، ٥٦].

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧١)، والترمذي (رقم: ٢٩٦٩)، وغيرهما.

وإذا جمع المسلم مع الدعاء حضور القلب وجمعيّته بكليّته مع المطلوب، وصادف وقتاً من أوقات الإجابة، وصادف خشوعاً في القلب، وانكساراً بين يدي الربِّ، وذُلاًّ له، وتضرّعاً ورقةً، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه، ثم ثنّى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قدَّم بين يدي حاجته التوبةَ والاستغفار، ثم دخل على الله، وألحَّ عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه رغبةً ورهبةً، وتوسّل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده، وقدّم بين يدي دعائه صدقَه، فإنَّ هذا الدعاء لا يكاد يُردُّ أبداً، ولا سيما إن صادف الأدعية التي أخبر النبي ﷺ أنّها مظنّةُ الإجابة، أو أنّها متضمّنةٌ للاسم الأعظم الذي إذا سُئل الله به أعطى، وإذا دُعي به أجاب[١]، ومن ذلك ما ثبت في «السنن» أنَّ النبيَّ ﷺ سمع رجلاً يقول: **«اللّهمَّ إني أسألك بأنّي أشهد أنّك أنت الله لا إله إلاَّ أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، فقال ﷺ: لقد سألتَ اللهَ باسمه الأعظم الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»**[٢].

***

---

(١) انظر: «الجواب الكافي» لابن القيم (ص/ ٩).

(٢) رواه أبو داود (رقم: ١٩٤٣)، والترمذي (رقم: ٣٤٧٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (رقم: ٧٦٦٦)، وابن ماجه (رقم: ٣٨٥٧)، وابن حبان (رقم: ٨٩١، ٨٩٢).

الثالث عشر: في التحذير من الغلوّ في الدِّين

إنَّ من الدروس العظيمة التي يفيدها الحاج من حجِّه لبيت الله الحرام أهميّةَ التوسّط والاعتدال في الأمور كلّها، ومجانبة الغلو والجفاء أو الإفراط والتفريط، كما قال الله تعالى في شأن هذه الأمة: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والمراد بقوله سبحانه: ﴿أُمَّةً وَسَطًا ﴾ أي: شهوداً عدولاً، لا يميلون عن الحق، لا إلى غلو، ولا إلى جفاء، بل يتوسّطون ويعتدلون، والحج مليء بالمواقف العظيمة والعِبر الجليلة التي ترشد إلى أهمية التوسّط، وتدلّ على أهمية الاعتدال، ومن أهمِّ هذه المواقف في هذا الباب العظيم النظرُ في هدي النبيِّ ﷺ وسنّته في رمي الجمار على ضوء ما ثبت عنه ﷺ، ثمَّ النظرُ بعد ذلك إلى أحوال الناس مع سنّته، فإنَّ حالهم في ذلك بين غلوٍّ وجفاء، وإفراط وتفريط، إلاَّ من وفّقهم الله وأكرمهم بلزوم سنّته ومتابعة هديه واقتفاء أثره ﷺ.

روى الإمام أحمد والنسائي وابن ماجه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة العقبة وهو على ناقته: «**الْقط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضهنّ في كفّه، ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: أيّها الناس إيّاكم والغلوَّ في الدين، فإنّما أهلك من كان قبلكم الغلوُّ في الدين**»[(١)]، وإسناده صحيح على شرط مسلم كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله[(٢)]، وغيره من أهل العلم.

فقوله ﷺ في الحديث: «**أمثال هؤلاء فارموا**»، أي: الحصيات التي التُقطت له بحجمها المحدّد في الحديث وهو حجم حصى الخذف، فاللفظ لا يتناول الحجم الصغير الذي لا يُسمى حصاة، كما لا يتناول الحجم الكبير الذي يُسمّى حجراً،

---

(١) «المسند» (١/ ٢١٥)، و«سنن النسائي» (٥/ ٢٦٨)، و«سنن ابن ماجه» (رقم: ٣٠٦٩).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/ ٢٩٣).

فالمشروع هو التوسّط، ومع وضوح هذا الأمر وشدّة بيانه فإنَّك إذا قارنت ذلك بحال بعض المسلمين ممّن جهلوا سنّة النبي ﷺ تجد منهم أمراً عجباً في هذا الباب بين غلوٍّ وجفاء وإفراطٍ وتفريطٍ وزيادة وتقصير، والحق قوام بين ذلك، فلا يقصُر المسلم عن سنته ﷺ شأن أهل التفريط والجفاء، ولا يزيد عليها شأن أهل الإفراط والغلوّ، وإنَّما يكون عدلاً وسطاً.

وقوله ﷺ: «**إيّاكم والغلوّ**» عام في جميع أنواع الغلوّ في الاعتقادات والأعمال؛ إذ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالمسلم منهيٌّ عن الغلوّ في كلِّ أحواله ممنوع منه في كلِّ شؤونه، مأمور باقتفاء آثار الرسول الكريم ﷺ واتّباع سنته في الأحوال كلّها.

إنَّ الشيطان حريص تمام الحرص على عبد الله المؤمن ليصرفه عن الجادة وليبعده عن صراط الله المستقيم إمّا إلى غلوّ أو إلى جفاء ولا يبالي بأيِّ الأمر ظفر كما قال بعض السلف: «ما أمر الله تعالى بأمر إلّا وللشيطان فيه نزغتان: إمّا إلى تفريط وتقصير، وإمّا إلى مجاوزة وغلوّ ولا يبالي بأيّهما ظفر»، وهو قاعدٌ للمسلم بأطرقه لا يفترُ ولا يملُّ من الكيد له والتربّص به واستفراغِ كامل الوُسْع لإضلاله وصرفه عن الصراط المستقيم والهدي المستبين.

قال ابن القيم رحمه الله في كتابه العظيم «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان»: «ومن كيده ـ أي الشيطان أعاذنا الله وإيّاكم منه ـ أنَّه يشامُّ النفس حتى يعلم أيَّ القوتين تغلب عليها قوّةُ الإقدام والشجاعة، أم الانكفافُ والإحجامُ والمهانةُ، فإن رأى الغالب على النفس المهانةَ والإحجامَ أخذ في تثبيطه وإضعاف همّته وإرادته عن المأمور به وثقله عليه فهوّن عليه تركه حتى يتركه جملةً أو يقصّر فيه ويتهاون، وإن رأى الغالب عليه قوّةَ الإقدام وعلوَّ الهمَّة أخذ يقلّل عنده المأمورَ ويوهمه أنّه لا يكفيه وأنّه يحتاج معه إلى مبالغة وزيادة، فيقصُرُ بالأوّل ويتجاوز بالثاني ... وقد اقتطع أكثرُ الناس إلاّ أقلَّ القليل في هذين الواديين وادي التقصير، ووادي

المجاوزة والتعدّي، والقليلُ منهم جداً الثابتُ على الصراط الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ...»[١].

ثم أطال رحمه الله بضرب أمثلة كثيرة على ذلك في جوانب مختلفة من الدين، ينقسم فيها الناس إلى أقسام: أهل غلوٍّ، وأهل جفاء، وأهل توسط واعتدال.

إنَّ الاعتدال في الأمور كلِّها، والتوسّط فيها، والبعدَ عن الغلوِّ والجفاء هو المنهج القويم والصراط المستقيم الذي ينبغي أن يسلكَه جميع المؤمنين كما أمرهم الله بذلك في كتابه، وكما أمرهم بذلك رسوله ﷺ، فالتوسّط حقًّا والاعتدال هو الأخذُ بالحدِّ الذي حدَّه الله لعباده بحيث لا يُدخلُ فيه ما ليس منه، ولا يُخرج منه ما هو داخل فيه، فبهذا امتدح الله المؤمنين، وبهذا أمرهم، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال تعالى: ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾ [لقمان: ١٩].

وقد صحّ في الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: «**القصدَ القصدَ تبلُغُوا**»[٢]، أي: عليكم بالقصد من الأمور في الأقوال والأفعال، والقصدُ هو الوسط بين الطرفين، وصح عن النبي ﷺ أنَّه قال كما في المسند وغيره: «عليكم هدياً قاصداً، فإنَّه من يشادَّ الدّين يغلبُه»[٣].

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: «الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة»[٤].

---

(١) إغاثة اللّهفان (١/ ١٣٦).

(٢) «صحيح البخاري» (رقم: ٦٤٦٣).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٥٠، ٣٦١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم: ٤٠٨٦).

(٤) رواه اللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١/ ٨٨).

فدينُ الله وَسَطٌ بين الغالي فيه والجافي عنه، وخيار الناس هم الوسط الذين ارتفعوا عن تقصير المفرطين، ولم يلحقوا بغلوّ المعتدين، بل لزموا هدي سيِّدِ المرسلين وخيرةِ ربِّ العالمين وقدوةِ الناس أجمعين محمّدِ بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وفي الختام فهذه جملةٌ من الدروس المنتقاة والفوائد المختارة، والتي يفيدها المسلمون من حجِّهم لبيت الله الحرام، والحج كما تقدّم مليء بالدروس العظيمة والعِبر الرائعة والفوائد المؤثِّرة، إلاَّ أنَّ الناس في تحصيلها واكتسابها متفاوتون بحسب ما تعي قلوبُهم من ذلك، فهناك قلبٌ كبيرٌ يسع علماً عظيماً، كوادٍ كبيرٍ يسع ماءً كثيراً، وقلبٌ صغيرٌ، كوادٍ صغيرٍ يسع علماً قليلاً، وقلبٌ لاهٍ غافل غمرته الغفلةُ، فلم يجد العلمُ مكاناً فيه، والتوفيق بيد الله وحده، فنسأله أن يمنَّ علينا جميعاً بالعلم النافع والعمل الصالح، وأن يعمرَ قلوبَنا بطاعته، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونِعم الوكيل.

* * *

الحجُّ وتهذيب النُّفوس

تأليف

عبد الرزَّاق بن عبد المحسن البدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتَّقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أمَّا بعد:

فما أعظم منافع الحجِّ وفوائده، وما أغزر خيراته وبركاته، وما أطيبَ عِبره وعظاته، أمور لا تُحصَى، وفوائدُ جليلةٌ لا تُعدُّ ولا تُستقصَى.

وقد لا يتيسَّر لكثير من الحُجَّاج الوقوفُ على منافع الحجِّ وفوائده ودروسه وعظاته، وحسن الاستفادة منها رغم أهميَّتها الجليلة وآثارها النبيلة عليهم في حياتهم كلِّها.

ولذا رأيتُ من المفيد إخراج هذه الرسالة رغبةً في تحقيق هذا المقصد الجليل والهدف النبيل، وجعلتُها بعنوان: «**الحجُّ وتهذيبُ النفوس**» راجياً من الله وحده أن يتقبَّلها بقبول حسن، وأن يجعلها نافعةً لعباده، إنَّه وليُّ التوفيق والقبول، وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

١ـ الحجُّ والإصلاح

إنَّ الحجَّ مدرسةٌ مباركةٌ لتهذيب النفوس وتزكية القلوب وتقوية الإيمان، فمن خلال هذا المنسَك العظيم والشعيرة المباركة يتلقَّى المسلمون الدروسَ العظيمة والعِبَرَ المؤثِّرة والفوائد الجليلة في العقيدة والعبادة والأخلاق، فهو بحقٍّ مدرسة تربويَّة إيمانيَّة يتخرَّج فيها المؤمنون المتَّقون، وينهل من معينها المبارك عبادُ الله الموفَّقون، يقول الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[1].

ومنافع الحجِّ وفوائده لا يُمكن حصرُها، وعِبَرُه ودروسُه لا يُمكن عدُّها واستقصاؤها، فإنَّ قوله تعالى في الآية: ﴿مَنَافِعَ﴾ هو جمع منفعة، ونكَّرَ المنافعَ إشارةً إلى تعدُّدها وتنوُّعها وكثرتِها، وشهودُ هذه المنافع أمرٌ مقصودٌ في الحجِّ؛ إذ اللاَّم في قوله: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ لام التعليل، وهي متعلِّقةٌ بقوله: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ أي: إن تؤذن فيهم بالحج يأتوك مشاةً وركباناً لأجل أن يشهدوا منافع الحجِّ، أي: يحضروها، والمراد بحضورهم المنافع حصولها لهم وانتفاعهم بها.

ولهذا فإنَّ من الحريِّ بكلِّ مَن وفَّقه اللهُ لهذه الطاعة ويَسَّر له أداء هذه العبادة أن يكون حريصاً غاية الحرص على تحصيل منافع الحجِّ والإفادةِ من عِبَره وعظاته، إضافة إلى ما يحصله في حجِّه من أجور عظيمة وثواب جزيل ومغفرة للذنوب وتكفير للسيِّئات، فقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن حجَّ هذا البيتَ فلَم يرفُث ولم يفسُق رجع كيوم ولدته أمُّه» رواه البخاري ومسلم[2]، وثبت عنه

---

(١) سورة الحج، الآية: ٢٧.

(٢) «صحيح البخاري» (١٨٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٥٠).

عليه الصلاة والسلام أنَّه قال: «تابعوا بين الحجِّ والعمرة، فإنَّهما ينفيان الفقرَ والذنوبَ كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد» رواه النسائي[١].

وجديرٌ بمَن نال هذا الرِّبحَ وفاز بهذا المَغنم أن يعودَ إلى بلده بحال زاكية ونفس طيِّبة وحياة جديدة مليئة بالإيمان والتقوى، عامرة بالخير والصلاح والاستقامة والمحافظة على طاعة الله عزَّ وجلَّ.

وقد ذكر العلماءُ أنَّ هذا الصلاح والزكاءَ إن وُجدَا في العبد فهو من أمارات الرِّضا وعلامات القبول، فإنَّ مَن حَسُنت حالُه بعد الحجِّ بالتحوُّل من السيِّء إلى الحسن أو من الحَسن إلى الأحسن فإنَّ ذلك دليلٌ على حسن انتفاعه بحجِّه؛ إذ إنَّ من ثواب الحسنة الحسنةَ بعدها، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾[٢]، فمَن أحسن في حجِّه واجتهد في تَتميمه وتكميله، وابتعد عن نواقصه ومفسداته خرج منه بأحسن حال، وانقلب إلى أطيبِ مآل.

وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الحجُّ المبرورُ ليس له جزاءٌ إلاَّ الجنَّة»[٣]، وما من ريب أنَّ كلَّ حاجٍّ يطمع ويؤمِّل أن يكون حجُّه مبروراً وسعيُه مشكوراً وعملُه صالحاً مقبولاً، والعلامةُ الواضحةُ لبرِّ الحجِّ وقبوله أن يكون المرءُ قد أدَّاه خالصاً لوجه الله، موافقاً لسنَّة رسول الله ﷺ، فإنَّ هذين شرطان لا قبول لأيِّ عمل من الأعمال إلاَّ بهما، وأن تكون حالُه بعد الحجِّ خيراً منها قبله.

فهاتان علامتان على القبول: علامةٌ تكون في أثناء الحجِّ وهي أن يأتي به صاحبُه خالصاً لوجه الله موافقاً لسنَّة رسوله ﷺ، وعلامةٌ تكون بعد الحجِّ وهي

---

(١) «سنن النسائي» (٥/ ١١٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (٢٩٠١).

(٢) سورة الرحمن، الآية: ٦٠.

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٤٩).

صلاحُ حال الإنسان بعد الحجِّ بأن يزيد إقبالُه على الطاعات واجتنابُه للمعاصي والذنوب، وأن يبدأ حياةً طيبةً معمورةً بالخير والصلاح والاستقامة.

وينبغي التنبُّه هنا إلى أنَّ المسلمَ لا سبيل له إلى أن يجزم بقبول عمله مهما أجاد فيه وأحسن، قال الله تعالى في بيان حال المؤمنين الكُمَّل وشأنِهم فيما يتقرَّبون به إلى الله من طاعات: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾[١] أي: يعطون من أنفسهم ما أمروا به من عبادات من صلاة وزكاة وحج وصيام وغير ذلك، وهم خائفون عند عرض أعمالهم على الله وعند وقوفهم بين يدي الله من أن تكون أعمالُهم غيرَ منجيةٍ وطاعاتُهم غيرَ مقبولة.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن أمِّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنَّها قالت: «قلت يا رسول الله ﷺ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الرَّجل يزني ويشرب الخمر؟ قال: لا يا بنت أبي بكر، أولا يا بنت الصديق، ولكنَّه الرَّجل يصوم ويصلِّي ويتصدَّق وهو يخاف أن لا يُقبل منه»[٢].

قال الحسن البصري رحمه الله: «إنَّ المؤمنَ جمع إحساناً وشفقةً، وإنَّ المنافقَ جمع إساءةً وأمناً»[٣].

وقد مضت السنَّة بين المؤمنين في قديم الزمان وحديثه أن يقول بعضُهم لبعض عقب هذه الطاعة: تقبَّل الله منَّا ومنكم، فالكلُّ يرجو القبول[٤]، وقد

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٢) «المسند» (٢٥٧٠٥).

(٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» (٩٨٥).

(٤) قال ابن بطة في كتاب «الإبانة» (٢/ ٨٧٣): «... وكذلك يقول من قدم من حجِّه بعد فراغه من حجِّه وعمرته وقضاء جميع مناسكه إذا سئل عن حجِّه إنَّما يقول: قد حججنا ما بقي غير القبول، وكذلك دعاء الناس لأنفسهم ودعاء بعضهم لبعض: اللَّهمَّ تقبَّل صومَنا وزكاتَنا، وبذلك يلقى الحاجُّ فيُقال له: قبل اللهُ حجَّك وزكى عملَك، وكذا يتلاقى الناس عند انقضاء شهر رمضان، فيقول بعضُهم لبعض: قبل الله منَّا ومنكم، بهذا مضت سنَّة المسلمين، وعليه جرت عادتهم، وأخذه خلفُهم عن سلفهم».

ذكر الله في القرآن الكريم أنَّ نبيَّه إبراهيم وابنَه إسماعيل عليهما الصلاة والسلام كانا يدعوان بهذا الدعاء عند بنائهما للكعبة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(١)، فهما في عمل صالح جليل وهما يسألان الله أن يتقبَّل منهما، روى ابن أبي حاتم عن وُهيب بن الورد أنَّه قرأ هذه الآية ثم بكى، وقال: «يا خليل الرحمن، ترفع قوائمَ بيت الرحمن وأنت مشفقٌ أن لا يقبل منك»(٢).

فإذا كان هذا شأنَ إمامِ الحنفاء وقدوةِ الموحِّدين فكيف الشأن بمَن دونه.

نسأل الله للجميع القبول والتوفيق والسداد، وأن يكتب لحُجَّاج بيت الله الحرام السلامةَ والعافيةَ، وأن يتقبَّل منَّا ومنهم صالح الأعمال، وأن يهدينا جميعاً سواء السبيل، إنَّه جوادٌ كريم.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: ١٢٧.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره»، كما في «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٥٤) طبعة الشعب.

٢ ـ الحجُّ والاستجابة لله

إنَّ الحجَّ طاعةٌ عظيمةٌ وعبادةٌ جليلةٌ، فيها تحقيقٌ للعبودية وكمالٌ في الذّلِّ والخضوع والانكسار بين يدي الربِّ عزَّ وجلَّ، فالحاجُّ يخرج من ملاذ الدنيا ومحابِّها مهاجراً إلى ربِّه سبحانه، تاركاً مالَه وأهلَه وعشيرَتَه، متغرِّباً عن بيته ووطنه، متجرِّداً من ثيابه المعتادة لابساً إزاراً ورداءاً، حاسراً عن رأسه، متواضعاً لربِّه، تاركاً الطيبَ والنساءَ، متنقِّلاً بين المشاعر بقلبٍ خاشع وعين دامعة ولسان ذاكر، راجياً رحمة ربِّه، خائفاً من عذابه، وشعارُه في ذلك كلِّه «لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك» أي: إنَّنِي خاضعٌ لك يا ربِّ مستجيبٌ لندائك منقادٌ لحُكمك، ممتثلٌ لأمرك.

والتلبيةُ شعارُ الحجِّ، فالمسلمُ يبدأ أعمالَ الحجِّ بالتلبية ويَمضي إلى مكة ملبِّياً إلى أن يصلَ إلى البيت ويشرع في الطواف، ثم هو يُلبِّي كلَّما انتقل من ركن إلى ركن، ومن منسك إلى آخر، فإذا سار إلى عرفة لَبَّى، وإذا سار إلى المزدلفة لَبَّى، وإذا سار إلى منى لَبَّى حتى يرمي جمرة العقبة فيقطع التلبية، فالتلبيةُ شعارُ الحجِّ والتنقل في أعمال المناسك.

وكم لهذا من أثر مبارك على المسلم في تزكية نفسه وإصلاحها ومعالجة تقصيرها في أوامر الله والقيام بحقوقه سبحانه.

أليس الواجب على المسلم أن يكون دائماً ملبِّياً نداء الله، مستجيباً لأمره، منقاداً لحُكمه، أليس الواجب على المسلم أن يكون شأنه في كلِّ طاعة أن يُلبِّي نداء الله وأن يستجيب لأمره.

فقد أمر الله عبادَه بالصلاة والزكاة والصيام والصدق والوفاء والأمانة والبرِّ والإحسان، ونهاهم عن الزِّنى والقتل وشرب الخمر والكذب والغشِّ والخيانة، فما شأن المسلم مع هذه الأوامر والنواهي، هل هو مُلبٍّ أمر الله قائمٌ بطاعته

سبحانه، أو أنَّه متلقٍ ذلك بالفسق والعصيان.

إنَّ حقيقةَ الإسلام الاستسلامُ لله بالتوحيد والانقيادُ له بالطاعة والبراءة من الشرك وأهله، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ﴾[1].

وقوله: ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ﴾ أي: الإسلام بامتثال شرع الله وطاعة أمره، وقوله: ﴿كَآفَّةٗ﴾ أي: جميعاً، قال مجاهد: «أي اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر»[2].

فهو سبحانه أمرهم بجميع شُعَب الإيمان وشرائع الإسلام، وهي كثيرة ما استطاعوا منها، كما قال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[3]، وفي الحديث: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم».

والآيات في الأمر بالاستسلام لله وتلبية ندائه وامتثال أوامره والتزام طاعته كثيرةٌ جدًّا.

فيا مَن أمركَ اللهُ بالحجِّ فلبَّيتَ النداءَ وجئتَ ميمماً بيته العتيق ترجو رحمتَه وتخاف عقابه، كيف حظُّك مع بقيَّة الأوامر، كيف شأنك مع الصلاة التي هي عماد الدِّين وأعظم أركانه بعد الشهادتَين، كيف شأنك مع الصيام، كيف شأنك مع الزكاة، كيف شأنك في البُعد عن النواهي وترك المحرمات، إن كنتَ ممتثلاً فاحمد الله واسأله المزيدَ، وإن كنتَ مفرِّطاً مضيِّعاً فحاسب نفسك قبل أن تُحاسَب في يوم الوعيد، فإنَّ اليوم عمل ولا حساب وغداً حسابٌ ولا عمل، حيث يقول تعالى في الحديث القدسي: «يا عبادي إنَّما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوَفِّيكم إيَّاها، فمَن

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٨.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (١/ ٣٦١).

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٦.

وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومنَّ إلاَّ نفسه»[(١)].

إنَّ الناسَ مع الأوامر والنواهي ينقسمون إلى أحوال: منهم من يستجيب إلى فعل الطاعات ويَكفُّ عن ارتكاب المعاصي، وهذا أكملُ أحوال أهل الدِّين، وأفضل صفات المتَّقين، ومنهم مَن يمتنع عن فعل الطاعات ويُقدِم على ارتكاب المعاصي، وهذا أخبثُ أحوال المكلَّفين وهو يستحقُّ عذاب اللاَّهي عن فعل ما أُمر به من طاعته وعذاب المجترئ على ما أقدَم عليه من معاصيه، ومنهم مَن يستجيب إلى فعل الطاعات ويُقدِم على ارتكاب المعاصي، فهذا يستحقُّ عذاب المجترئ؛ لأنَّه تورَّط بغلبة الشهوة على الإقدام على المعصية، ومنهم مَن يمتنع من فعل الطاعات ويَكفُّ عن ارتكاب المعاصي، فهذا يستحقُّ عذاب اللاَّهي عن دينه.

والواجب على المسلم أن يكون ناصحاً لنفسه محافظاً على طاعة ربِّه ممتثلاً أمره مبتعداً عن نهيه صابراً محتسباً.

قال أحدُ السَّلف: «إنَّا نظرنا فوجدنا الصبرَ على طاعة الله تعالى أهون من الصبر على عذابه»، وقال آخر: «اصبروا عباد الله على عمل لا غنى لكم عن ثوابه، واصبروا عن عمل لا صبر لكم على عقابه».

وكم يحتمي الإنسان في هذه الحياة الدنيا من أمور يخشى أن تضرَّ بدنَه أو تؤثِّرَ على صحَّته، ومع ذلك لا يحتمي من أمور تفضي به إلى عقاب الله وتؤول به إلى عذابه.

قال ابن شبرمة: «عجبتُ لِمَن يحتمي من الطيِّبات مخافة الداء كيف لا يحتمي من المعاصي مخافة النار».

وقال حماد بن زيد: «عجبتُ عمَّن يحتمي من الأطعمة لمضرَّاتها كيف لا

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٥٧٧).

يحتمي من الذنوب لمعرَّتها»[١].

وتأمَّل أخي الملبِّي الموفَّق جميعَ ما سبق، وتأمَّل معه وصيَّة النَّبيِّ ﷺ لمعاشر الملبِّين، ففي الترمذي وغيره عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب في حجَّة الوداع، فقال: «اتَّقوا الله ربَّكم، وصَلُّوا خمسَكم، وصوموا شهرَكم، وأدُّوا زكاة أموالكم وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنَّة ربِّكم»، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»، ورواه الحاكم وقال: «صحيح على شرط مسلم»، ووافقه الذهبي[٢].

وإنَّا لنسأل الله جلَّ وعلا أن يجعلنا وإيَّاكم من الملبِّين نداءه سبحانه حقًّا وصدقاً، وأن يُلهمنا رشد أنفسنا، وأن يوفِّقنا لطاعته إنَّه سميع مجيب.

* * *

---

(١) انظر فيما سبق «أدب الدنيا والدين» للماوردي (ص/ ١٠٣ ـ ١٠٤).

(٢) «جامع الترمذي» (٦١٦)، و«المستدرك» (١/ ٩).

٣ ـ الحجُّ والذِّكر

لقد شرع الله لعباده الحجَّ لإقامة ذكره سبحانه، فالذِّكرُ هو مقصودُ الحجِّ بل هو المقصودُ في جميع الطاعات، فما شُرعت العبادات إلاَّ لأجله وما تقرَّب المتقرِّبون إلى الله بمثله، والحجُّ كلُّه ذِكرٌ لله.

قال الله تعالى: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[2].

فتأمَّل هذه الوصيَّة العظيمة والأمر الكريم بملازمة ذكر الله عزَّ وجلَّ في جميع مقامات الحجِّ في الوقوف بعرفة أمرَ بالذِّكر وعند المشعر حرام أمر بالذِّكر، وعند نحر الهدي أمرَ بالذِّكر، وفي أيَّام التشريق أمر بالذِّكر، فالذِّكرُ هو مقصود هذه الأعمال، بل إنَّها لم تشرع إلاَّ لإقامة ذكره سبحانه.

---

(١) سورة الحج، الآيتان: ٢٧، ٢٨.

(٢) سورة البقرة، الآيات: ١٩٨ ـ ٢٠٣.

وقد روى أبو داود وغيره عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّما جُعل الطوافُ بالبيت، والسعيُ بين الصفا والمروة ورميُ الجمار لإقامة ذكر الله عزَّ وجلَّ»[١].

وفي هذا دلالةٌ على علو شأن الذِّكر ورفعة منزلته وجلالة قدره، وأنَّه مقصودُ العبادات ولبُّها، وقد قال الله عزَّ وجلَّ في شأن الصلاة: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[٢] أي: أقم الصلاةَ لأجل ذكر الله جلَّ وعلا، وسَمَّى سبحانه الصلاةَ ذكراً وذلك في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[٣]؛ لأنَّ ذكرَ الله روحُها ولبُّها وحقيقتُها، وهكذا شأن الذِّكر في جميع العبادات، وأعظم الناس أجراً في كلِّ عبادة أعظمُهم فيها ذكراً لله عزَّ وجلَّ.

روى الإمام أحمد والطبراني من طريق عبد الله ابن لهيعة قال: حدَّثنا زبَّان بن فائد، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: «أنَّ رجلاً سأله فقال: أيُّ الجهاد أعظمُ أجراً يا رسول الله، فقال: أكثرُهم لله تبارك وتعالى ذكراً، قال: أيُّ الصائمين أكثرهم أجراً؟ قال: أكثرُهم لله ذكراً، ثم ذكر لنا الصلاة والزكاة والحجَّ والصدقة كلُّ ذلك رسول الله ﷺ يقول: أكثرهم لله ذكراً، فقال أبو بكر لعمر: يا أبا حفص ذهب الذاكرون بكلِّ خير، فقال رسول الله ﷺ: أجل»[٤].

قال الهيثمي: «وفيه زبَّان بن فائد وهو ضعيف، وقد وُثِّق وكذلك ابن لهيعة»[٥].

---

(١) «سنن أبي داود» (١٨٨٨)، و«جامع الترمذي» (٩٠٢)، وقال: حسن صحيح.

(٢) سورة طه، الآية: ١٤.

(٣) سورة الجمعة، الآية: ٩.

(٤) «المسند» (١٥٦١٤)، و«المعجم الكبير» للطبراني (٢٠، رقم:٤٠٧).

(٥) «مجمع الزوائد» (١٠/ ٧٤).

لكن للحديث شاهد مرسلٌ بإسناد صحيح رواه ابن المبارك في «الزهد» قال: أخبرني حيوةُ، قال: حدَّثني زُهرة بن معبد، أنَّه سمع أبا سعيد المقبُري يقول: «قيل: يا رسول الله، أيُّ الحاجِّ أعظمُ أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ المصلِّين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ الصائمين أعظم أجراً؟ قال: أكثرهم لله ذكراً، قال: فأيُّ المجاهدين أعظم أجراً؟ فقال: أكثرهم لله ذكراً»، قال زُهرة فأخبرني أبو سعيد المقبُري أنَّ عمرَ بن الخطاب قال لأبي بكر: «ذهب الذاكرون بكلِّ خير»[(١)].

وله شاهد آخر أورده ابن القيم في كتابه الوابل الصيب قال: وقد ذكر ابن أبي الدنيا حديثاً مرسلاً: «أنَّ النَّبيَّ ﷺ سُئل: أيُّ أهل المسجد خير؟ قال: أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: أيُّ أهل الجنازة خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيَّ المجاهدين خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيُّ الحُجَّاج خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قيل: فأيُّ العوَّاد خير؟ قال: أكثرهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، قال أبو بكر: ذهب الذاكرون بالخير كلِّه»[(٢)].

قال ابن القيم رحمه الله: «إنَّ أفضلَ أهل كلِّ عمل أكثرُهم فيه ذكراً لله عزَّ وجلَّ، فأفضلُ الصُّوَّام أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ في صومهم، وأفضلُ المتصدِّقين أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وأفضلُ الحُجَّاج أكثرُهم ذكراً لله عزَّ وجلَّ، وهكذا سائر الأعمال»[(٣)].

فإذا علمتَ ذلك فلتحرص على ملازمة ذكر الله في جميع الطاعات؛ في صلاتك وصيامك وحجِّك وجميع عباداتك، فإنَّ أجرَك في كلِّ عبادة بحسب ذكرك لله فيها.

---

(١) «الزهد» (١٤٢٩).

(٢) «الوابل الصيب» (ص/ ١٥٢).

(٣) «الوابل الصيب» (ص/ ١٥٢).

فالذِّكرُ أجلُّ الطاعات وأعظمُ العبادات، وثمارُه على أهله كثيرة لا تُحصَى، ومن أجَلِّ ثماره أنَّه وسيلةٌ مباركة لحياة القلب وتهذيب النفس وتزكية الفؤاد، وهو يجلب لقلب الذَّاكر الفرح والسرور والراحة، ويورث القلب السكون والطمأنينة، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾(١) وهو شفاءٌ للقلب ودواءٌ لمرضه ومُذْهِبٌ لقسوته، وفي القلوب قسوةٌ لا يُذيبُها إلاَّ ذكرُ الله تعالى، جاء رجلٌ إلى الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وقال: «يا أبا سعيد أشكو إليك قسوة قلبي، قال: أَذِبْه بالذِّكر»(٢).

وبذكر الله تتيسَّرُ الأمور وتتسهَّل الصِّعابُ، فما ذُكر الله على صعب إلاَّ هان ولا على عسير إلاَّ تيسَّر ولا مشقَّة إلاَّ خفَّت ولا شدَّة إلاَّ زالت، ولا كُربة إلاَّ انفرجت.

جعلنا الله وإيَّاكم من الذَّاكرين، وجنَّبنا سبيل الغافلين، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

***

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢٨.

(٢) ذكره ابن القيم في «الوابل الصيِّب» (ص/ ١٤٢).

٤ ـ الحجُّ والتوكُّل

إنَّ الحجَّ رحلةٌ مباركةٌ وسفرٌ عظيمٌ إلى خير الأراضي وأشرف البقاع استجابةً لله ورغبة في ثوابه وأملاً في نيل عظيم موعوده وجزيل نواله ووافر أجره، وهو باب رَحْبٌ لحطِّ الأوزار، وتكفير السيِّئات وزيادة الحسنات، وإقالة العثرات، والعتق من النار.

ومَن يخرج من بيته إلى الحجِّ يخرج معتمداً على ربِّه متوكِّلاً عليه مفوِّضاً أمره إليه، طالباً منه وحده العون والتوفيق والهداية؛ لعلمه بأنَّ الأمورَ كلَّها بقضائه وقدَره، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، وهو مع هذا يحملُ زادَه معه، ويبذل السبب في نيل رحمة الله وثوابه.

وتأمَّل قول الله عزَّ وجلَّ في سياق آيات الحجِّ: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[١]، وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنَّ ناساً كانوا يخرجون إلى الحجِّ بغير زاد، ويَظنُّون أنَّ هذا حقيقة التوكُّل، ثم يضطرُّون إلى الناس ويحتاجون إلى سؤالهم.

روى البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «كان أهلُ اليمن يَحجُّون ولا يتزوَّدون، ويقولون: نحن المتوكِّلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناسَ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾»[٢].

وروى ابن أبي الدنيا في كتاب «التوكُّل» عن معاوية ابن قرَّة قال: «لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال: مَن أنتم؟ قالوا: نحن المتوكِّلون، قال: بل أنتم المتَّكلون، إنَّ المتوكِّل الذي يلقي حبَّة في الأرض ويتوكَّل على الله عزَّ وجلَّ»[٣].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٢) «صحيح البخاري» (١٥٢٣).

(٣) «التوكل» (١٠).

إنَّ حقيقةَ التوكُّل هو عمل القلب وعبوديته لله اعتماداً عليه وثقة به والتجاءً إليه وتفويضاً ورضىً بما يقضيه له لعلمه بكفايته سبحانه وحسن اختياره لعبده إذا فوَّض أموره إليه، مع القيام بالأسباب المأمور بها والاجتهاد في نيلها وتحصيلها، هذه حقيقة التوكُّل: اعتماد على الله وحده لا شريك له مع فعل الأسباب المأمور بها.

والناسُ في هذا المقام الجليل منقسمون إلى ثلاثة أقسام: طرفين ووسط؛ فأحد الطرفين: عطَّل السبب محافظة على التوكُّل، والطرف الثاني: عطَّل التوكُّل محافظة على السبب، والوسط: علم أنَّ حقيقةَ التوكُّل لا تتمُّ إلاَّ بالقيام بالسبب، فتوكَّل على الله في نفس السبب، وهما أصلان لا بدَّ منهما لتحقيق التوكُّل.

وقد جُمع بين هذين الأصلين العظيمين في نصوص كثيرة كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾[1]، وقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، ونحوهما من الآيات.

وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعُك واستعن بالله ولا تعجز»[2].

فقوله: «احرص على ما ينفعُك» فيه الأمرُ بكلِّ سبب دينيٍّ ودنيويٍّ، بل فيه الأمر بالجدِّ والاجتهاد في ذلك والحرص عليه نيةً وهمَّةً وفعلاً، وقوله «واستعن بالله» فيه الإيمان بقضاء الله وقدره والأمر بالتوكُّل عليه والاعتماد عليه والثقة به سبحانه.

---

(١) سورة هود، الآية: ١٢٣.
(٢) «صحيح مسلم» (٢٦٦٤).

وروى الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال رجل يا رسول الله أعقلُها وأتوكَّل أو أُطلقها وأتوكَّل، فقال له: اعقلها وتوكَّل»[١]، فأرشده ﷺ إلى الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ.

وروى الترمذي أيضاً عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «لو أنَّكم توكَّلون على الله حقَّ توكُّله لرزقكم كما يرزق الطيرَ تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٢]، فذكر الأمرين معاً، فإن غُدُوَّ الطير وهو ذهابُها في الصباح الباكر هو سعيٌ في طلب الرِّزق وجِدٌّ واجتهادٌ في تحصيله.

قيل للإمام أحمد رحمه الله: ما تقول في رجل جلس في بيته أو مسجده وقال: لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي؟ فقال أحمد: هذا رجلٌ جهِلَ العلمَ، أما سمع قول النَّبيِّ ﷺ: «إنَّ الله جعل رزقي تحت ظلِّ رُمحي»، وقال حين ذكر الطيرَ: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[٣].

وبهذا يُعلمُ أنَّ التوكُّلَ لا بدَّ فيه من الجمع بين الأمرين فعل السبب والاعتماد على الله عزَّ وجلَّ، أمَّا من عطَّل السببَ وزعم أنَّه متوكِّلٌ فهو في الحقيقة متواكلٌ مغرور، وفعله هذا ما هو إلاَّ عجزٌ وتفريطٌ وتضييع، فلو قال قائل مثلاً: إن قدر لي أدركت العلم اجتهدتُ أو لم أجتهد، أو قال إن قدر لي أولاد حصلوا تزوَّجتُ أو لم أتزوَّج، وهكذا من رجا حصول ثمر أو زرع بغير حرث ولا بذر ولا سقي، وهكذا مَن يترك أهلَه وولدَه بلا نفقة ولا غذاء ولا يسعى في ذلك متَّكلاً على القدر، فكلُّ ذلك تضييعٌ وتفريطٌ وإهمالٌ وتواكلٌ.

---

(١) «جامع الترمذي» (٢٥١٧).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣٤٤)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٥٤).

(٣) ذكره ابن قدامة في «مختصر منهاج القاصدين» (ص/ ٩٥).

قال ابن قدامة رحمه الله: «قد يظنُّ بعضُ الناس أنَّ معنى التوكُّل تركُ الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض كالخرقة وكلحم على وضم، وهذا ظنُّ الجُهَّال، فإنَّ ذلك حرامٌ في الشرع»(١). اهـ.

أمَّا مَن يقوم بالسبب ناظراً إليه معتمداً عليه غافلاً عن المُسَبِّب معرضاً عنه فهذا توكُّلُه عجزٌ وخذلانٌ ونهايتُه ضياع وحرمان، ولذا قال بعض العلماء: «الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسباباً نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكليَّة قدحٌ في الشرع، وإنَّما التوكُّل والرَّجاء معنى يأتلف من مُوجب التوحيد والعقل والشرع».

إنَّ التوكُّلَ على الله مصاحبٌ للمؤمن الصادق في أموره كلِّها الدينية والدنيوية، فهو مُصاحبٌ له في صلاته وصيامه وحجِّه وبرِّه وغيرِ ذلك من أمور دينه، ومُصاحبٌ له في جلبه للرِّزق وطلبه للمباح وغير ذلك من أمور دنياه.

والتوكُّل أصل لجميع مقامات الدِّين ومنزلته منها كمنزلة الجسد من الرأس، فكما لا يقوم الرأس إلاَّ على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلاَّ على ساق التوكُّل.

جعلنا الله من المتوكِّلين عليه حقًّا، ومن المعتمدين عليه يقيناً وصدقاً، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص/ ٣٦١).

٥ ـ الحجُّ والتوبة

إنَّ الحجَّ بابٌ مبارك من أبواب التوبة والإنابة إلى الله والخروج من الذنوب والعتق من النار.

روى البخاري ومسلم في «صحيحيهما» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَن حجَّ ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمُّه»[١].

وروى مسلم في «صحيحه» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال لعمرو بن العاص رضي الله عنه عند إسلامه: «أما علمتَ أنَّ الإسلامَ يهدم ما كان قبله، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنَّ الحجَّ يهدم ما كان قبله»[٢].

وروى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «العمرةُ إلى العمرة كفَّارةٌ لِما بينهما والحجُّ المبرور ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة»[٣].

وروى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة وأنَّه ليدنو ثم يُباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء»[٤].

وروى النسائي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «تابعوا بين الحجِّ والعمرة، فإنَّهما ينفيان الذنوب كما ينفي الكيرُ خبث الحديد»[٥].

---

(١) «صحيح البخاري» (١٨٢٠)، و«صحيح مسلم» (١٣٥٠).

(٢) «صحيح مسلم» (١٢١).

(٣) «صحيح مسلم» (١٣٤٩).

(٤) «صحيح مسلم» (١٣٤٨).

(٥) «سنن النسائي» (٥/ ١١٥)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (٢٩٠١).

ففي هذه الأحاديث دلالة على عظم شأن الحجِّ وأنَّه بابٌ عظيمٌ لحطِّ الأوزار وإقالة العثرات وغفران الذنوب والعتق من النار.

والواجب على المسلم أن يُبادر إلى التوبة إلى الله عزَّ وجلَّ لينال بذلك الفلاح وليحصل وافر الأجر وعظيم الأرباح.

يقول الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(١)، ويقول سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾(٢)، ويقول سبحانه: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٣).

والتوبةُ من أنبل الأعمال وأجلِّها، وهي من أحبِّ الأعمال إلى الله وأكرمها، وللتائبين عنده محبَّة خاصة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾(٤)، بل إنَّه سبحانه يفرح بتوبة التائبين مع أنَّه سبحانه غنيٌّ حميد.

ففي «الصحيحين» عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لله أفرحُ بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره وقد أضلَّه في أرض فلاة»، وفي رواية لمسلم: «لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيِسَ منها، فأتى شجرةً فاضطجع في ظلِّها قد أَيِسَ من راحلته، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمةً عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدَّة الفرح: اللهمَّ أنت عبدي وأنا ربُّك، أخطأ من شدَّة الفرح»(٥).

---

(١) سورة النور، الآية: ٣١.

(٢) سورة التحريم، الآية: ٨.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٧٠.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٥) «صحيح البخاري» (٦٣٠٩)، و«صحيح مسلم» (٢٧٤٧).

وليُعلم أنَّ بابَ التوبة مفتوح مهما بلغ الجُرْمُ وعَظُم الإثمُ، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾(١)، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾(٣).

بل لقد قال جلَّ وعلا في شأن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ﴾(٤)، وقال في شأن النصارى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَـٰهٍ إِلَّآ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(٥)، وقال في شأن أصحاب الأخدود الذين خدُّوا الأخاديد لفتنة المؤمنين وإضلالهم عن دينهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾(٦).

قال الحسن البصري رحمه الله: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياء الله وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»(٧).

ولهذا لا يحِلُّ لأحد أن يقنط الناسَ من رحمة الله مهما بلغت ذنوبُهم وكثرت وتعدَّدت، كما لا يحِلُّ له أن يجرِّئهم على فعل المعاصي واقتراف الذنوب.

---

(١) سورة الشورى، الآية: ٤٢.

(٢) سورة النساء، الآية: ١١٠.

(٣) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

(٤) سورة النساء، الآيتان: ١٤٥، ١٤٦.

(٥) سورة المائدة، الآيتان: ٧٣، ٧٤.

(٦) سورة البروج، الآية: ١٠.

(٧) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٨/ ٣٩٣).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله عزَّ وجلَّ»[١].

وعلى العبد أن يُبادر إلى التوبة وأن يُسارع إلى تحقيقها، قبل فوات الأوان، قال ﷺ: «إنَّ الله عزَّ وجلَّ يقبل توبةَ العبد ما لم يُغَرْغِر» رواه الترمذي[٢]، وقال ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه» رواه مسلم[٣].

والواجب كذلك أن يتوب العبد من كلِّ ذنب وأن يستوفي شروط التوبة لتكون توبتُه مقبولةً.

قال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في كتابه العظيم «رياض الصالحين»: «قال العلماء: التوبة واجبة من كلِّ ذنب، فإن كانت المعصيةُ بين العبد وبين الله تعالى لا تتعلّق بحقٍّ آدميٍّ فلها ثلاثة شروط:

أحدها: أن يُقلعَ عن المعصية.

والثاني: أن يندم على فعلها.

والثالث: أن يعزم أن لا يعود إليها أبداً.

فإن فُقد أحدُ الثلاثة لم تصح التوبةُ، وإن كانت المعصيةُ تتعلَّق بآدميٍّ فشروطها أربعة، هذه الثلاثة، وأن يبرأ من حقِّ صاحبها، فإن كانت مالاً أو نحوه ردَّه إليه، وإن كان حدَّ قذف ونحوه مكّنه أو طلب عفوَه، وإن كانت غيبة استحلَّه منها، ويجب أن يتوب من جميع الذنوب، فإن تاب من بعضها صحَّت توبتُه عند أهل الحقِّ من ذلك الذنب وبقي عليه الباقي»[٤]. اهـ.

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٧/ ٩٩).

(٢) «جامع الترمذي» (٣٥٣٧)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (١٩٠٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧٠٣).

(٤) «رياض الصالحين» (ص/ ٧).

ونسأل الله أن يَمُنَّ على الجميع بالتوبة النَّصوح، وأن يتقبَّل توبتَنا، وأن يغسل حوْبَتنا، وأن يجيب دعوتنا إنَّه سميع مجيب.

* * *

٦ - لباس الإحرام والتذكير بالأكفان

إنَّ عِبَرَ الحجِّ وفوائدَه لا تُحصَى، وكم فيه من الدروس النافعة والعِظات المؤثِّرة، ومن عظات الحجِّ وعبَره أنَّ المسلمَ إذا وصل إلى الميقات الذي وقَّته رسول الله ﷺ للإحرام تجرَّد من ثيابه ولبس إزاراً على نصفه الأسفل، ورداءاً على نصفه الأعلى مِمَّا دون الرأس، وفي هذه الهيئة من اللباس يستوي الحُجَّاج، لا فرق بين الغنيِّ والفقير والرئيس والمرؤوس، وتساويهم في هذا اللباس يذكِّرُ بتساويهم جميعاً في لباس الأكفان بعد الموت، فإنَّ الكلَّ يُجَرَّدون من ملابسهم ويلفُّون بلفائف بيضاء لا فرق فيها بين غنيٍّ وفقير.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن سمُرة بن جندب رضي الله عنه أنَّ النَّبيّ ﷺ قال: «البسوا الثياب البيض، فإنَّها أطهرُ وأطيبُ، وكفِّنوا فيها موتاكم»(١).

ولَّما مات سيِّدُ ولد آدم ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب بيض من القطن ليس فيها قميص ولا عمامة، روى البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ رسول الله ﷺ كُفِّن في ثلاثة أثواب يمانيَّة بيض سَحوليَّة من كُرْسُف، ليس فيهنَّ قميصٌ ولا عمامة»(٢).

وكلُّ مَن مات فهذا شأنه؛ يُغسَّل ويُجرَّد من ملابسه، ويُلفُّ بلفائف بيضاء، ثم يُصلَّى عليه، ثم يدرج في القبر.

والحاجُّ عندما يتجرَّد من لباسه في الميقات ويلبس الإحرام يتذكَّرُ هذه الحال ويتواردُ على ذهنه هذا المآل، ويتذكَّر الموتَ الذي به تنتهي الحياة الدنيوية وتبتدئ الحياةُ الأخرويَّة.

---

(١) «المسند» (٢٠١٥٤).

(٢) «صحيح البخاري» (١٢٦٤)، و«صحيح مسلم» (٩٤١).

وكم هو عظيم ونافعٌ للعبد أن يتذكَّرَ الرحيل، وأن يتذكَّرَ مفارقةَ الأنيس والخليل، وأن يتذكَّرَ أنَّه ليس له من ماله إلاَّ الأكفان، أي: نصيبه في قبره من ماله، ثم مآلها إلى الخراب، يقول الشاعر:

نصيبُكَ مِمَّا تجمعُ الدَّهرَ كلَّه ... رداءان تُلوى فيهما وحَنوطُ

ويقول الآخر:

هـي القناعـةُ لا تبغـي بهـا بـدلاً ... فيهـا النعـيم وفيهـا راحـة البـدن
انظـر لِـمَن مَلَـكَ الـدنيا بأجمعهـا ... هل راح منها بغير القطن والكَفَنِ[1]

وقد صحَّ في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «أكثروا ذكرَ هاذم اللَّذات» يعني الموت[2]، وجاء عن ابن مسعود رضي الله عنه أنَّه قال: «كفى بالموت واعظاً».

ومَن تذكَّر الموتَ أقبل على الآخرة ولم تكن الدنيا أكبرَ همِّه ولا مبلغَ علمه، وذِكرُ الموت يردع عن المعاصي ويلين القلبَ القاسي، ويذهبُ الفرح بالدنيا ويهوِّن المصائبَ فيها.

ثم إنَّ كفَنَ الإنسان الذي يدخل معه في قبره لا ينفعه بشيء، ومآله إلى البِلَى، مع أنَّه الشيءُ الوحيد الذي يدخل معه في قبره من دنياه، والذي ينفع الإنسانَ في قبره هو عملُه الصالح، وقد ثبت في «الصحيحين» عن أنس بن مالك، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «يتبع الميِّتَ ثلاثةٌ، فيرجع اثنان ويبقى واحد: يتبع أهلُه ومالُه وعملُه، فيرجع أهلُه ومالُه، ويبقى عملُه»[3].

---

(١) انظر الأبيات في «التذكرة» للقرطبي (١/ ٢٨).

(٢) «جامع الترمذي» (٢٣٠٧)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (١٢١٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٥١٤)، و«صحيح مسلم» (٢٩٦٠)، وانظر شرح هذا الحديث في رسالة للحافظ ابن رجب مطبوعة بعنوان: «جزء فيه الكلام على حديث يتبع الميت ثلاث».

ومن المعلوم أنَّ الإنسانَ لا بدَّ له من أهل يُؤانسُهم، ومالٍ يعيش به، وهذان مفارقان له وهو مفارقٌ لهما ولا بدَّ، والسعيد من اتَّخذ من ذلك ما يكون عوناً له على الخير والطاعة، وأمَّا مَن اتَّخذ أهلاً ومالاً يشغله عن الله فهو خاسر، كما قالت الأعراب: ﴿شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا﴾(١)، وقال تعالى: ﴿لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾(٢).

ومَن مات فإنَّه لا ينتفع من أهله وماله بشيء إلاَّ بدعاء أهله له واستغفارهم، وبما قدَّمه من ماله بين يديه، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ جِئۡتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَتَرَكۡتُم مَّا خَوَّلۡنَٰكُمۡ وَرَآءَ ظُهُورِكُمۡ﴾(٤).

فكلُّ ما كان للإنسان من مال وأهل فإنَّه تاركُه وراء ظهره غيرُ منتفع منه بشيء إلاَّ دعوة من أهله أو نفقة قدَّمها من ماله، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلاَّ من ثلاث: إلاَّ من صدقة جارية، أو ولدٍ صالح يدعو له، أو علم يُنتفع به»(٥).

والأهل قد يدعون له وقد لا يدعون، والمال الذي كان يمتلكه لا ينتفع منه بشيء في قبره إلاَّ بما كان قدَّمه بين يديه، فإنَّه يَقْدَمُ عليه وهو داخلٌ في عمله الذي يصحبه في قبره، وما سوى ذلك من ماله قلَّ أو كثر فهو لورثته لا له، وهو إنَّما كان عليه بمثابة الحارس والخازن.

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١١.

(٢) سورة المنافقون، الآية: ٩.

(٣) سورة الشعراء، الآيتان: ٨٨، ٨٩.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٤.

(٥) «صحيح مسلم» (١٦٣١).

ففي «صحيح مسلم» عن النَّبيّ ﷺ قال: «يقول ابنُ آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلاَّ ما أكلتَ فأفنيتَ، أو لبست فأبليتَ، أو تصدَّقتَ فأمضيتَ»[١].

وفي «صحيح البخاري» عن النَّبيِّ ﷺ قال: «أيُّكم مالُ وارثه أحبُّ إليه من ماله؟ قالوا: ما منَّا أحدٌ إلاَّ ماله أحبّ إليه، قال: فإنَّ ماله ما قدَّم، ومالَ وارثه ما أخَّر»[٢].

قال الله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾[٣]، قال بعض السَّلف: «أي في القبر» يعني: أنَّ العمل الصالح يكون مهاداً لصاحبه في القبر، حيث لا يكون للعبد من متاع الدنيا فراش ولا وساد ولا مهاد، بل كلُّ عامل يفترش عملَه ويتوسَّده من خير أو شرٍّ[٤].

وفي الحديث عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «قال لي جبريل: يا محمد عِش ما شئتَ فإنَّك ميِّت، وأَحْبب مَن شئتَ فإنَّك مفارقُه، واعمل ما شئتَ فإنَّك مُلاقيه»[٥].

نسأل الله لنا جميعاً صلاح الأمر وحسن العاقبة، والتوفيق لما يحبُّه ويرضاه.

* * *

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٩٥٨).

(٢) «صحيح البخاري» (٦٤٤٢).

(٣) سورة الروم، الآية: ٤٤.

(٤) انظر رسالة ابن رجب: «جزء فيه الكلام على حديث: يتبع الميت ثلاث» (ص/ ٤٠).

(٥) رواه الطيالسي (١٨٦٢)، والحاكم (٤/ ٣٢٥)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٥٥).

٧ ـ الحجُّ ومكانة العلماء

إنَّ من الدروس الرائعة التي تظهر لكلِّ متبصِّر في الحج مكانةَ العلماء ورفعةَ مقامهم وعلوَّ قدرهم وسُموَّ منزلتهم، فترى الحجيج يسألون عنهم ويَبحثون عن أماكنهم، ويحرصون على التفقُّه عليهم ويطرحون عليهم سؤالاتهم في أمور الحجِّ وغيره، ويغتبطون بسماع أجوبتهم وتوجيهاتهم ونصائحهم.

قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: إنه ليزيدني في الحجِّ رغبةً لقاء عمرو بن دينار، فإنه يحبنا ويفيدنا(١).

وقال الذهبي رحمه الله: ولقد كان خلق من طلبة الحديث يتكلفون الحجَّ وما المحرِّك لهم سوى لقيّ سفيان بن عيينة؛ لإمامته وعلو إسناده(٢).

ولا ريب في رفعة مكانة العلماء؛ إذ هم في الخير قادة، تُقتصُّ آثارُهم، ويُقتدى بأفعالهم، وينتهى إلى رأيهم، تضع الملائكةُ أجنحتها لهم رضاً بصنيعهم، ويستغفر لهم كلُّ رطب ويابس، حتى الحيتانُ في الماء، بلغ بهم علمُهم منازلَ الأخيار ودرجات المتَّقين الأبرار، فسَمَت به منزلتهم وعلت مكانتهم وعظُمَ شأنهم وقدرهم، كما قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٤).

وبجميل نصحهم وحسن توجيههم وتمام بيانهم يعرفُ الناسُ الحلالَ من الحرام، والهدى من الضلال، والحقَّ من الباطل، قال العلاَّمة الإمام أبو بكر

---

(١) «السير» (٥/ ٣٠٣).

(٢) «السير» (٨/ ٤٥٧).

(٣) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٩.

الآجري ـ رحمه الله ـ وهو يتحدَّث عن مكانة العلماء: «فضَّلهم على سائر المؤمنين، وذلك في كلِّ زمان وأوان، رفعهم الله بالعلم وزيَّنهم بالحلم، بهم يُعرف الحلالُ من الحرام، والحقُّ من الباطل، والضارُّ من النافع، والحَسَنُ من القبيح، فضلُهم عظيم، وخطرهم جزيل، ورثةُ الأنبياء وقرَّةُ عين الأولياء، الحيتانُ في البحار لهم تستغفر، والملائكةُ بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة بعد الأنبياء تشفع، مجالسهم تفيد الحكمة، وبأعمالهم ينزجر أهل الغفلة، هم أفضلُ من العُبَّاد وأعلى درجة من الزُّهَّاد، حياتُهم غنيمة وموتهم مصيبة، يذكِّرون الغافلَ ويُعلِّمون الجاهل، لا يتوقع لهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة ...» إلى أن قال رحمه الله: «فهم سراجُ العباد ومنار البلاد وقوام الأمَّة وينابيع الحكمة، هم غيظ الشيطان، بهم تحيى قلوب أهل الحقِّ، وتموت قلوب أهل الزيغ، مثلهم في الأرض كمثل النجوم في السماء، يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وإذا انطمست النجوم تحيَّروا، وإذا أسفر عنها الظلامُ أبصروا»[١]. اهـ.

وإذا كان أهل العلم بهذه المنزلة الرفيعة والدرجة العالية المنيفة، فإنَّ الواجبَ على مَن سواهم أن يحفظَ لهم قدرَهم ويعرف لهم مكانتهم وينزلهم منازلهم، قال ﷺ: «ليس من أمَّتي مَن لم يُجلَّ كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرف لعالمنا حقَّه»[٢]، وقال ﷺ: «أنزلوا الناسَ منازلهم»[٣].

فلا بدَّ من معرفة منزلة العلماء وحفظ حقوقهم؛ حيِّهم وميِّتهم شاهدهم وغائبهم، بالقلوب حبًّا واحتراماً، وباللسان مدحاً وثناءً، مع الحرص على التزوُّد من علومهم والإفادة من معارفهم، والتأدُّب بآدابهم وأخلاقهم، والبعد عن النَّيل منهم، أو اللَّمز لهم، أو الوقيعة فيهم، فإنَّ ذلك من أعظم الإثم وأشدِّ اللُّؤم.

---

(١) «أخلاق العلماء» (ص/ ١٣ ـ ١٤).

(٢) «المسند» (٢٢٧٥٥)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (٥٤٤٣).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٨٤٢).

إنَّ العلماءَ هم القادةُ لسفينة النجاة، والروادُ لساحل الأمان والهداةُ في دياجر الظلام: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾(١).

وهم حجَّة الله في الأرض، وهم أعلمُ بما يُصلحُ المسلمين في دنياهم وأخراهم؛ لِمَا آتاهم الله من العلم، ولِـمَـا حباهم به من الفقه والفهم، فهم عن علم ثاقب يُفتون، وببصر نافذ يقرِّرون، وعن نظر بصير يحكمون، لا يُلقون الأحكام جُزافاً، ولا يصدعون صفوف المسلمين فتاً وإرجافاً، ولا يبتدرون إلى الفتاوى دون تحقيق وتدقيق تهاوناً وإسرافاً، ولا يكتمون الحقَّ عن الناس غمطاً لهم أو تكبُّراً واستنكافاً.

ولهذا أمر الله بالردِّ إليهم دون سواهم وسؤالهم دون غيرهم، قال الله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٢)، وقال سبحانه: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾(٣)، وهذا فيه تأديبٌ للمؤمنين بأنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمور المهمَّة والمصالح العامة مِمَّا يتعلَّق بالأمن وسرور المؤمنين، أو بالخوف الذي فيه مصيبة عليهم أن يتثبَّتوا ولا يستعجلوا، وأن يردُّوا ذلك إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم، أهلِ العلم والنُّصح والعقل والرزانة، الذين يعرفون الأمور، ويعرفون المصالح وضدَّها، فمَن صدر عن رأيهم سلم، ومن افتات عليهم تضرَّر وأثِم.

وإنَّ من علامات الضياع البعدَ عن العلماء الراسخين، وتركَ التعويل على فتاوى الأئمَّة المحقِّقين، ونزعَ الثقة بالفقهاء المدقِّقين.

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٣.

وحين تفقد الأمَّةُ الثقة بالعلماء يُصبح شأنُها كأناس في صحراء قاحلة بلا قائد ناصح يقودهم ولا هادٍ خرِّيت يدلُّهم، فيؤول أمرُهم إلى العَطَب، وتكون نهايتُهم إلى التَّلَف.

فالعلماء هم الذين لهم الصدارةُ في دعوة الأمَّة وتوجيه مسارها وإرشاد يقظتها، وإن لم يكن الأمر كذلك اتَّخذ الناسُ رؤساءَ جُهَّالاً فأفتوهم بغير علم ودلُّوهم بغير فهم، وحينئذ يحلُّ الوهَن ويعظم الخَلَل وتغرق السفينة.

قال الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «عليكم بالعلم قبل أن يُقبض، وقبضُه بذهاب أهله، عليكم بالعلم فإنَّ أحدَكم لا يدري متى يفتقر إلى ما عنده، وستجدون أقواماً يزعمون أنَّهم يدعون إلى كتاب الله، وقد نبذوه وراء ظهورهم، وإيَّاكم والتبدُّع والتنطُّع والتعمُّق، وعليكم بالعتيق»[١].

فلعلَّك أيُّها الحاجُّ الموفَّق وأنت ترى حرصَ الناس على الإفادة من العلماء في أحكام الحجِّ، وحرصهم على سؤالهم والإفادة من علومهم تُدرك فضيلةَ العلماء وحاجةَ الأمَّة إليهم وإلى علومهم وأهميَّة سؤالهم والاستفادة منهم في جميع أمور الدِّين، وكما أنَّك تستفيد من العلماء في أحكام الحجِّ وتستفتيهم عمَّا يُشكل عليك منها فلتستفد منهم ولتستفتهم في صلاتك وصيامك وزكاتك، وجميع أمور الدِّين؛ لتعبدَ الله على نور وبصيرة.

ونسأل الله الكريم أن يُبارك في علمائنا، وأن يُوفِّقنا لحسن الاستفادة منهم، وأن يجزيهم عنَّا وعن المسلمين خير الجزاء، إنَّه سميعٌ مجيب.

* * *

(١) «سنن الدارمي» (١٤٣).

٨ ـ الحجُّ والتقوى

لقد أكثر الله عزَّ وجلَّ في آيات الحجِّ على قلَّتها من الوصيَّة بالتقوى؛ لأنَّه يحصل في الحجِّ من أسباب التقوى ما لا يحصل في غيره، وذلك مع الوعي الصحيح لحقيقة الحج ومغزاه، وقد تكرَّرت الوصيَّة بتقوى الله في سياق آيات الحجِّ من سورة البقرة.

ففي الآية الأولى من هذه الآيات قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[(١)]، وفي أثناء هذه الآيات قال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ﴾[(٢)]، وختم جلَّ وعلا آيات الحجِّ بقوله: ﴿وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[(٣)].

والتقوى هي أعظمُ وصيَّة وخيرُ زاد ليوم المعاد، وهي وصيَّة الله للأوَّلين والآخرين من خلقه، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُواْ اللَّهَ﴾[(٤)]، وهي وصيَّة النَّبيِّ الكريم ﷺ لأمَّته، فقد كان ﷺ إذا بعث أميراً على سريَّة أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمَن معه من المسلمين خيراً، وكان كثيرَ الوصيَّة بها في خُطبه، ولمَّا خطب الناسَ في حجَّة الوداع يوم النحر وصَّى الناسَ بتقوى الله، ولم يزل السَّلف الصالح يتواصون بها، وذلك لأنَّها خيرُ زاد يبلغ إلى رضوان الله، ولمَّا قال رجل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: اتَّقِ الله، أجابه عمرُ بقوله: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إذا لم نقبلها»، والنقول عن السلف في هذا كثيرة[(٥)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٣١.

(٥) انظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص/ ١٥٠ ـ ١٥١).

وللتقوى على أهلها منافعُ عظيمةٌ وثمارٌ كريمةٌ وفوائدُ جَمَّةٌ في الدنيا والآخرة، فمن ثمارها حصولُ العلم النافع، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾[٢]، ومن ثمارها الخروج من المحن وتحصيل الرّزق الطيِّب وتيسُّر الأمور، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾[٤]، ومن ثمارها ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾[٥]، و﴿أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[٦]، ومن ثمارها نيلُ الفلاح والفوزُ بالمغفرة، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٧]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٨]، ومن ثمارها حصولُ الرِّفعة في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[٩]، وحصولُ العاقبة الحميدة، قال الله تعالى: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[١٠]، ومن أجَلِّ ثمارها دخولُ جنَّة الله والتشرُّف برؤيته، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[١١].

وثمـارُ التقوى لا تُحصَى، وفضائلُها لا تُستقصى، وأكرمُ الناس عند الله أعظمهم تقوىً له سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١٢].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨٢.
(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٩.
(٣) سورة الطلاق، الآيتان: ٢، ٣.
(٤) سورة الطلاق، الآية: ٤.
(٥) سورة التوبة، الآية: ٤.
(٦) سورة البقرة، الآية: ١٩٤.
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.
(٨) سورة الأنفال، الآية: ٦٩.
(٩) سورة البقرة، الآية: ٢١٢.
(١٠) سورة الأعراف، الآية: ١٢٨.
(١١) سورة القمر، الآيتان: ٥٤، ٥٥.
(١٢) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

وتقوى الله جلَّ وعلاَ أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه ويخشاه من غضبه وعقابه وقايةً تقيه، وذلك لا يكون إلاَّ بفعل الأوامر واجتناب النواهي، كما قال الحسن البصري رحمه الله: «المتَّقون اتَّقَوا ما حرَّم الله عليهم وأدَّوا ما فرض عليهم»، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: «ليس تقوى الله بصيام النهار ولا بقيام الليل مع التخليط فيما بين ذلك، ولكنَّ تقوى الله تركُ ما حرَّم الله وأداءُ ما افترض الله»، وقال طلق ابن حبيب رحمه الله: «تقوى الله أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[١].

وأساسُ التقوى هو القلب، كما قال ﷺ: «التقوى ها هنا، ويشير إلى صدره الشريف ثلاث مرَّات»[٢]، فمتى أصلح العبدُ قلبَه صلَحَ البدنُ كلُّه تبَعاً لذلك، ومتى خضع القلبُ لطاعة الله خضعت الجوارح، كما قال ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسد مضغةً إذا صلحت صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلب»[٣].

والله جلَّ وعلا لا ينظر إلى الصور والأموال، وإنَّما ينظر إلى القلوب والأعمال، كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينظر إلى صوَرِكم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤].

وإنَّ مِمَّا يُعينُ العبدَ على تحقيق التقوى والعناية بها أن يتذكَّر الموتَ والوقوفَ بين يدي الله والجزاءَ والحسابَ والجنَّةَ والنارَ، ولقد أحسن مَن قال:

---

(١) انظر هذه الآثار في «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص/ ١٤٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٢)، و«صحيح مسلم» (١٥٩٩).

(٤) «صحيح مسلم» (٢٥١٤).

فيــا عجبــاً نــدري بنــارٍ وجَنَّــةٍ ... وليس لذي نشتاقُ أو تلك نحـذرُ
إذا لم يكن خوفٌ وشوقٌ ولا حيـا ... فمـاذا بقي فينـا مـن الخـير يـذكرُ
وليس لِـحَـرٍّ صابرين ولا بلـــى ... فكيف على النيران يـا قـوم نـصبرُ
نبيــع خطــيراً بــالحقير عِمــاية ... وليـــس لنـــا عقـــلٌ ولـــبٌّ منـــورُ
فطوبى لِـمَن يؤتى القناعة والتُّقى ... وأوقاتُــــه في طاعـــة الله يَعمـــرُ

إنَّ وصيَّةَ الله بالتقوى المتكرِّرة في آيات الحجِّ ودعوتَه سبحانه لأولي الألباب إلى تقواه تدلُّ على أنَّ أهلَ العقول والألباب ينبغي عليهم وقد أكرمهم الله بالحجِّ أن يُعملوا عقولَهم وألبابَهم في تلك المشاعر العظيمة ليستفيدوا منها تقوى الله، فالحجُّ مدرسةٌ عظيمةٌ للتقوى وبابٌ عظيمٌ من أبوابها.

والواجب على مَن أكرمه الله بالحجِّ أن يستفيدَ من حجِّه تقوى الله، وأن يتزوَّد فيه بزادها المبارك، وأن ينهل من معينها العذب، وأن يتقي الله بصيانة حجِّه عن الرَّفث والفسوق والجدال، وأن يتقي الله بحفظ وقته عن كلِّ إسفاف، وأن يشغلَه بذكر الله والنافع من القول، وأن يتقي الله بالحرص على اتِّباع السنَّة ولزوم هدي خير الأمَّة محمد ﷺ، وبالحذر من البدع والأهواء، وأن يتقي الله في مراعاة جميع أعمال الحجِّ من ركن وواجب ومستحبٍّ دون تساهل أو إهمال، وأن يتقي الله بالتفقُّه في دينه والإتيان بعبادته على بصيرة، وأن يتقي الله في إخوانه المسلمين من الحُجَّاج وغيرهم، وأن يكون عوناً لهم على كلِّ خير يلقاهم بطلاقة وجهٍ وصفاء قلب وحسن الحديث، ويتقي الله بتوقير الكبير ورحمة الصغير وتعليم الجاهل وإرشاد الضال، وأن يتقي الله بحفظ لسانه وغضِّ بصره وكفِّ يده، وأن يتقي الله باجتناب الغشِّ والكذب والشُّحِّ والسبِّ والبذاء وسوء الظنِّ.

وكلَّما عظم نصيبُه وحظُّه في حجِّه من التقوى عظم حظُّه ونصيبه من الأجر والثواب، وغفران الذنوب، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ

وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[١] أي: فلا إثم عليه لحِطِّ الله ذنوبَه إن كان قد اتَّقى الله في حجِّه، فاجتنب فيه ما أمره الله باجتنابه وفعل ما أمره الله بفعله، وأطاعه بأدائه على ما كلَّفه من حدوده[٢].

جعلنا الله جميعاً من المتقين، وسلك بنا صراطه المستقيم، إنَّه سميع مجيب.

***

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

(٢) «جامع البيان» للطبري (٣/ ٣٠٩).

٩ ـ يوم عرفة والتذكيرُ بالموقف يوم القيامة

إنَّ من عبر الحجِّ العظيمة ومواقفه المؤثرة غاية التأثير ذلكم الجمعُ العظيمُ والموقف المباركُ الذي يشهده جميعُ الحُجَّاج في يوم عرفة على أرض عرفة، حيث يقفون جميعاً ملبِّين ومبتهلين إلى الله، يرجون رحمتَه ويخافون عذابَه، ويسألونه من فضله العظيم، في أعظم تجمُّع إسلاميٍّ يُشهد.

وهذا الاجتماع الكبير يذكِّر المسلم بالموقف الأكبر يوم القيامة الذي يلتقي فيه الأوَّلون والآخرون ينتظرون فصل القضاء ليصيروا إلى منازلهم؛ إمَّا إلى نعيم مقيم أو إلى عذاب أليم.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ في ميميَّته:

فلله ذاك الموقفُ الأعظمُ
كموقف يوم العرضِ بل ذاك أعظمُ

ولا ريب في عِظم يوم العرض، يقول الله تعالى: ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾[(١)]، ويقول سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[(٢)].

ففي ذلك اليوم العظيم يجمع الله جميعَ العباد، كما قال سبحانه: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾[(٥)].

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٤٨.

(٢) سورة الحاقة، الآية: ١٨.

(٣) سورة النساء، الآية: ٨٧.

(٤) سورة التغابن، الآية: ٩.

(٥) سورة هود، الآية: ١٠٣.

ويستوي في هذا الجمع الأوَّلون والآخرون، فالكلُّ مجموع إلى ذلك الميقات العظيم ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾[1].

ولن يتخلَّف عن هذا الجمع أحدٌ، مَن هلكوا في أجواء الفضاء، ومَن ضلُّوا في أعماق الأرض، ومَن أكلتهم الطيورُ والسِّباع، الكلُّ سيُجمعُ ولا مَفرَّ، قال تعالى: ﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ۝٩٤ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا﴾[4].

وسيُجمعون على أرض غير هذه الأرض، قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[5]، وقد بيَّن لنا الرسولُ ﷺ صفة هذه الأرض التي يُجمع عليها الناس، ففي صحيح البخاري ومسلم عن سهل بن سعد قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يُحشرُ الناسُ يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقُرصة النَّقيِّ ليس فيها عَلَمٌ لأحد»[6] أي: على أرض مستوية لا ارتفاع فيها ولا انخفاض ولا جبال ولا صخور، وليس فيها علامةُ سكنى أو بناء.

ويُجمعون حُفاةً لا نعال عليهم، عُراةً لا لباس عليهم، غُرْلاً أي: غير مختونين، ففي صحيح البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال:

---

(١) سورة الواقعة، الآيتان: ٤٩، ٥٠.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٧.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٨.

(٤) سورة مريم، الآيات: ٩٣ ـ ٩٥.

(٥) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.

(٦) «صحيح البخاري» (٦٥٢١)، و«صحيح مسلم» (٢٧٩٠).

«إنَّكم محشورون حُفاةً عُراةً غُرلاً، ثم قرأ: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾[1]»[2].

وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها أنَّها لَمَّا سمعت النَّبيَّ ﷺ يقول: «يُحشر الناسُ يوم القيامة حُفاةً عُراةً غُرلاً» قالت: يا رسول الله، الرِّجال والنساء جميعاً ينظر بعضُهم إلى بعض؟ قال: «يا عائشة، الأمر أشدُّ من أن ينظرَ بعضُهم إلى بعض»[3].

وفي ذلك اليوم تدنو الشمسُ من الخلائق حتى تكون منهم كمقدار ميل، فلا ظلَّ في ذلك اليوم إلاَّ ظلُّ عرش الرحمن، فمن مستظلٍّ بظلِّ العرش، ومن مُضحٍ بحرِّ الشمس، قد صهرته واشتدَّ فيها كربُه وأقلقته، وقد ازدحمت الأمم وتضايقت ودفع بعضُهم بعضاً، واختلفت الأقدامُ وانقطعت الأعناق من العطش، قد اجتمع عليهم في موقفهم حرُّ الشمس مع وَهَج أنفاسهم وتزاحم أجسامهم، ففاض العرقُ منهم على وجه الأرض، ثم على أقدامهم على قدر مراتبهم ومنازلهم عند ربِّهم من السعادة والشقاء، فمنهم من يبلغ العرقُ منكبيه وحقويه، ومنهم إلى شحمة أذنيه، ومنهم من قد ألجمه العرقُ إلجاماً[4]، نسأل الله العافية والسلامة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يَعرَقُ الناسُ يوم القيامة حتى يذهبَ عرقُهم في الأرض سبعين ذراعاً، ويلجمهم حتى يبلغ آذانهم» رواه البخاري[5].

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٤٩)، و«صحيح مسلم» (٢٨٦٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٦٥٢٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٥٩).

(٤) انظر: «التذكرة» للقرطبي (١/ ٣٥٧).

(٥) «صحيح البخاري» (٦٥٣٢).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تدنى الشمسُ يوم القيامة من الخلق، حتى تكون منهم كقدر ميل، فيكون الناسُ على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من يكون إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً»، وأشار رسول الله ﷺ بيده إلى فيه(١).

ويكون وقوفهم في يوم مقداره خمسون ألف سنة، قال الله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾(٢)، وفي «صحيح مسلم» أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «ما من صاحب ذهب ولا فضَّة لا يُؤدِّي منها حقَّها إلاَّ إذا كان يوم القيامة صُفِّحت له صفائح من نار، فأُحمي عليها في نار جهنَّم، فيُكوى بها جنبُه وجبينُه وظهرُه، كلَّما بَردت أُعيدَت له في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيرى سبيلَه إمَّا إلى الجنَّة وإمَّا إلى النار»(٣).

ويهوِّن الله أمرَ الوقوف على أهل الإيمان، نسأل الله الكريم من فضله، ففي المستدرك للحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يومُ القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر»(٤).

ويُظلِّهم الله سبحانه في ظلِّه الظليل يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلُّه، ويقول سبحانه في ذلك الموقف العظيم: «أين المتحابُّون بجلالي، اليوم أُظلُّهم في ظلِّي، يوم لا ظلَّ إلاَّ ظلِّي»(٥).

---

(١) «صحيح مسلم» (٢٨٦٤).

(٢) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٣) «صحيح مسلم» (٩٨٧).

(٤) «المستدرك» (١/ ٨٤)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (٨١٩٣).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٥٦٦).

وفي ذلك اليوم يفزَعُ الناسُ إلى الأنبياء يطلبون منهم الشفاعةَ عند الله في أن يبدأ في القضاء والحكم بين العباد، فيعتذرون إلاَّ نبيّنا محمداً ﷺ، فإنَّه يقول: أنا لها، فيذهبُ ويَخرُّ ساجداً تحت العرش لربِّ العالمين، ويفتح الله عليه من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتحه على أحدٍ قبله ثم يقول له: ارفع رأسَك وسَلْ تُعطَ، واشفع تشفَّع، وحينئذ يجيء الربُّ جلَّ وعزَّ للفصل بين العباد.

قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[1].

تذكَّر يوم تأتي الله فرداً وقد نُصبت موازينُ القضاء
وهُتِّكت السُّتور عن المعاصي وجاء الذنبُ منكشف الغطاء[2].

فتفكَّر في هذا اليوم الذي وُصف لك، وفي هذا الحال الذي حُدِّثت عنه، وأعِدَّ له عدَّته، وعليك بتقوى الله، فإنَّها خيرُ زاد، وقد قال الله تعالى في ختام آيات الحج ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾[3].

جعلنا الله وإيَّاكم من عباده المتَّقين، وأعاذنا جميعاً من خزي يوم الدِّين، وجعلنا بمنِّه وكرمه يوم الفزَع من الآمنين.

* * *

(١) سورة الفجر، الآيات: ٢٢ ـ ٢٤.

(٢) انظر البيتين في «التذكرة» للقرطبي (٢/ ١٧).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠٣.

١٠ ـ الحجُّ والرابطة الإسلامية

إنَّ من مجالات الحجِّ المباركة في تهذيب النفوس ما يشهده الحاجُّ في يوم عرفة من تجمُّع عظيم وتجمهر كبير، بل هو أعظمُ تجمُّع إسلاميٍّ، وفي هذا التجمُّع الإسلامي الكبير وكذا في بقيَّة المشاعر يلتقي المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فيتعارفون ويتناصحون، ويتعرَّف بعضُهم على أحوال بعض، فيتشاركون في الأفراح والمسرَّات، كما يُشارك بعضُهم بعضاً في آلامه ويُرشده إلى ما ينبغي له فعله، ويتعاونون جميعاً على البرِّ والتقوى، كما أمرهم الله سبحانه بذلك.

وفي هذا اليوم المبارك يوم عرفة يكثُر الحجيجُ من قول لا إله إلاَّ الله، فهي خيرُ ما يُقال في هذا اليوم، بل هي خير الكلمات على الإطلاق وأحبُّها إلى الله، وقد ثبت في الحديث أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «خيرُ الدعاء دعاءُ يوم عرفة، وخيرُ ما قلته أنا والنبيُّون من قبلي لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير»[(١)].

وفي هذا إشارةٌ عظيمةٌ إلى أنَّ اجتماعَ المسلمين لا يكون إلاَّ على التوحيد لله والمتابعة للرسول ﷺ؛ إذ بهما تذوب الأهواءُ وتتبدَّد العداوةُ والبغضاء، وتلتقي القلوبُ وتجتمع الكلمة وتتَّحدُ الصفوف، وكلَّما ضعُف استمساكُهم بهذه الكلمة ضعُف حظُّهم من الاجتماع والأُلفة بحسب ذلك.

ثمَّ إنَّ هذه الجموعَ الغفيرةَ على اختلاف ألوانهم وتباين ألسنتهم وتباعد بلدانهم قد اجتمعوا على مقصَد واحد وغاية واحدة، تتَّضح من خلال هذه الكلمة التي يهتفون بها ويُردِّدونها، فالذي جمعهم هو توحيدُ الله والإيمانُ به، والذي ألَّف بينهم هو الخضوعُ لله والتذلُّل بين يديه رغَباً ورهباً، رجاءً وخوفاً، حُبًّا وطمعاً.

---

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٨٥)، وحسنه العلامة الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ٨،٧).

فكلمة التوحيد «لا إله إلاَّ الله» هي الرابطةُ الحقيقيَّةُ التي اجتمع عليها أهلُ دين الإسلام، فعليها يُوالون ويُعادون، وبها يُحبُّون ويُبغضون، وبسببها أصبح المجتمعُ المسلم كالجسد الواحد، وكالبنيان المرصوص يشدُّ بعضُه بعضاً.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي ـ رحمه الله ـ في كتابه «أضواء البيان»: «والحاصلُ أنَّ الرابطةَ الحقيقيَّةَ التي تجمع المفترقَ وتؤلِّفُ المختلفَ هي رابطةُ لا إله إلاَّ الله، ألا ترى أنَّ هذه الرابطةَ التي تجمع المجتمعَ الإسلاميَّ كلَّه كأنَّه جسدٌ واحدٌ، وتجعله كالبنيان يشدُّ بعضُه بعضاً عطفت قلوب حملة العرش ومَن حوله من الملائكة على بني آدم في الأرض مع ما بينهم من الاختلاف، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۞٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۞٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[(١)].

فقد أشار تعالى إلى أنَّ الرابطة التي ربطت بين حملة العرش ومَن حوله وبين بني آدم في الأرض حتى دعوا الله لهم هذا الدعاء الصالح العظيم، إنَّما هي الإيمان بالله جلَّ وعلا.

إلى أن قال رحمه الله: وبالجملة فلا خلاف بين المسلمين أنَّ الرابطةَ التي تربطُ أفرادَ أهل الأرض بعضهم ببعض وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة لا إله إلاَّ الله، فلا يجوز البتة النداءُ برابطة غيرها»[(٢)] اهـ.

---

(١) سورة غافر، الآيات: ٧ ـ ٩.

(٢) «أضواء البيان» (٣/ ٤٤٧، ٤٤٨).

وتقريراً لهذا المعنى العظيم وتأكيداً عليه قال النَّبيُّ ﷺ في خُطبته بمنى يوم النحر: «يا أيُّها الناس، ألا إنَّ ربَّكم عزَّ وجلَّ واحدٌ، ألا وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربيٍّ على عجمي، ألا لا فضل لأسود على أحمر إلاَّ بالتقوى، أَبَلَّغت؟ قالوا: نعم، قال: ليبلغ الشاهدُ الغائبَ» رواه الإمام أحمد في «مسنده» بإسناد صحيح[(١)].

ومن منافع الحجِّ العظيمة تقوية هذه الرابطة وتوثيق هذه الصلة فالربُّ المعبود واحد، والقبلة المتَّجه إليها واحدة، والرسول المتَّبع واحد، ولباس الإحرام، ومشاعر الحجِّ وأعماله واحدة، ومكان تجمع المسلمين وزمانه واحد، وشعار الجميع «لبَّيكَ اللهمَّ لبَّيك» خضوعاً واستكانةً وانقياداً وامتثالاً، فأيُّ رابطة أوثقُ من هذه، وأيُّ صلة أعظمُ من هذه الصلة.

ألا فليَعِ المسلمون ذلك، وليحمدوا ربَّهم على هذا الوشاح المبارك والوفاق الكريم، والحب والإخاء، ولْيَسْعَ كلُّ واحد منهم في تحقيق كلِّ ما يقوِّي هذه الصلةَ وينميها، وليبتعدوا عن كلِّ أمر يضعفها ويوهيها، ومن الدعوات المأثورة «اللَّهم أصلح ذات بيننا وألِّف بين قلوبنا واهدنا سُبُل السلام وأخرجنا من الظلمات إلى النور»، وليطرح الجميعُ العصبيات العرقية، والشعارات القومية، والنَّعرات الجاهلية، والتحزبات الضيقة.

روى أبو داود وغيرُه بإسناد صحيح أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّ الله تعالى قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهليَّة وفخرها بالآباء، مؤمنٌ تقيٌّ أو فاجر شقي، أنتم بنو آدم، وآدم من تراب، لَيَدَعنَّ رجالٌ فخرَهم بأقوام إنَّما هم فَحْمٌ من فَحْم جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعَلان التي تدفع بأنفها النَّتَن»[(٢)].

---

(١) «المسند» (٢٣٤٨٩).

(٢) «سنن أبي داود» (٥١١٦)، وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (١٧٨٧).

وفي «المسند» للإمام أحمد عن أبي ذر ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: «انظر، فإنَّك ليس بخير من أحمر ولا أسود إلَّا أن تفضله بتقوى»[(١)].

ثمَّ إنَّ من استطال على غيره بنسب أو غيره بحقٍّ فقد افتخر، وإن استطال على غيره بغير حقٍّ فقد بغى، والفخرُ والبغيُ كلاهما محرَّم، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنِّي أوحي إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحد على أحد»[(٢)].

فنهى سبحانه فيما أوحاه إلى نبيِّه ﷺ عن نوعي الفخر والبغي اللذين هما استطالة على الخلق، فمَن استطال بحقٍّ فقد افتخر، ومن استطال بغير حقٍّ فقد بغى، ولا يحلُّ هذا ولا ذاك.

نعوذ بالله من الفخر والخيلاء، ومن البغي والظلم، ونعوذ به من كلِّ خطيئة وإثم ونسأله سبحانه أن يجمع المسلمين على البر والتقوى، وأن يصلح ذات بينهم وأن يؤلِّف بين قلوبهم وأن يهديهم سبل السلام، وأن يوحِّد صفوفَهم وأن يجمع كلمتهم، وأن يُبطل كيدَ عدوِّهم، إنَّه سبحانه سميع مجيب.

***

---

(١) «المسند» (٢١٤٠٧).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

١١ ـ الحجُّ وزيادةُ الإيمان

إنَّ في الحجِّ مجالاً واسعاً لإصلاح النفوس وتهذيب القلوب وزيادة الإيمان، وكم في الحجِّ من الدروس الرائعة والعبر المؤثِّرة في إقبال القلوب على الله، وشدَّة رغبها ورهبها ورجائها وخوفها، وكثرة رجوعها وإنابتها، فكم من دمعة صادقة في الحجِّ أُريقت، وكم من توبة نصوح قُبلت، وكم من عثرة أُقيلت، وكم من خطيئةٍ حُطَّتْ، وكم من دعاء خاشع أجيب، وكم من رقبة من النار أُعتقت.

وعندما نتأمَّل نصوصَ الكتاب والسنَّة المتعلِّقة بالحجِّ نجدُ فيها من الضوابط العظيمة والتوجيهات الحكيمة التي تحقِّق للعبد صلاحاً وزكاءً في حجِّه، بل في حياته كلِّها، كقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

فكم في هذه النواهي ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ من دعوة وتوجيه إلى كبح جماح النفس والحدِّ من ميلها إلى رغباتها وشهواتها، وكم في قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ﴾ من دعوة إلى المسارعة في فعل الخيرات والمسابقة لأداء الطاعات، وكم في قوله: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ من دعوة لأخذ الأُهبة والاستعداد بالتَّزوُّد ليوم المعاد، كشأن المسافر الذي يأخذ زاده معه في سفره.

قال ابن القيم رحمه الله: «الناسُ منذ خُلقوا لم يزالوا مسافرين، وليس لهم حطٌّ عن رحالهم إلاَّ في الجنَّة أو النار، والعاقل يعلم أنَّ السفرَ مبنيٌّ على المشقَّة

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

وركوب الأخطار، ومن المحال عادةً أن يطلب فيه نعيماً ولذَّةً وراحةً، إنَّما ذلك بعد انتهاء السفر»(١). اهـ.

إلاَّ أنَّ العبدَ يأتيه في هذه الحياة من الصوارف والشواغل والمُلهيات ما يشغله عن أخذ الزاد ليوم المعاد، ويذهبُ جدةَ إيمانه وجماله وحيويته، بل لقد أخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ الإيمانَ قد يَخْلَقُ في جوف الإنسان، فيحتاج العبدُ إلى تجديده والسعي في تقويته، روى الحاكم في المستدرك والطبراني في المعجم الكبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الإيمانَ لَيَخلَقُ في جوف أحدكم كما يَخلَقُ الثوبُ، فاسألوا الله أن يُجدِّدَ الإيمانَ في قلوبكم»(٢)، فوصف عليه الصلاة والسلام الإيمانَ بأنَّه يَخلَق كما يَخلَق الثوب، أي: يبلى ويضعف ويدخله الوهن والنقص من جرَّاء ما يلقاه العبدُ في هذه الدنيا من فتن ومُلهيات، وما يقع فيه من معاصٍ وذنوب، وأرشد عليه الصلاةُ والسلام إلى تعاهد الإيمان والعمل على تقويته، وسؤال الله زيادته وثباته، والله تعالى يقول: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾(٣)، فمن الخير للعبد أن ينصح لنفسه في إيمانه الذي هو أغلى شيء لديه وأثمنُ شيء عنده، وخيرُ زاد يلقى به ربَّه سبحانه وتعالى.

ومجالات تقوية الإيمان وأسبابُ زيادته عديدةٌ ومتنوِّعةٌ، ومن هذه المجالات العظيمة الحجُّ، فهو يهدمُ ما كان قبله، والمبرورُ منه ليس له جزاء إلاَّ الجنَّة، ومن أدَّاه بلا رفث ولا فسوق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمُّه، وهو ينفي الذنوب كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديد، كما صحَّت بذلك الأحاديث عن رسول الله ﷺ.

---

(١) «الفوائد» (ص/ ١٩٠).

(٢) «المستدرك» (١/ ٤)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (١٥٩٠).

(٣) سورة الحجرات، الآيتان: ٧، ٨.

وكم كان الحجُّ نقطةَ تحوُّلٍ في حياة كثير من الناس من سيِّءٍ إلى حسن، ومن حسن إلى أحسن، والشواهدُ على هذا والوقائعُ المؤكِّدةُ له تفوق الحصر.

وكم من حاجٍّ تحرَّى مواطنَ الإجابة في الحجِّ ومدَّ يديه إلى ربِّه خاشعاً متذلِّلاً طامعاً في فضله العظيم، وسأله أن يُجدِّد الإيمانَ في قلبه وأن يثبته عليه، وأن يصرفَ عنه الفتنَ ما ظهر منها وما بطن، وأن يُصلح له دينَه ودنياه وآخرته، وأن يُزيّنه بزينة الإيمان، وأن يجعله من الهُداة المهتدين.

والله عزَّ وجلَّ لا يُخيبُ عبداً دعاه ولا يردُّ عبداً ناجاه، وهو القائلُ سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[1]، وثبت في الحديث عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «الحُجَّاجُ والعُمَّار وفدُ الله، دعاهم فأجابوه، وسألوه فأعطاهم»[2].

فحريٌّ بمَن أكرمه الله بالحجِّ أن يكون في حجِّه مخبتاً لربِّه متواضعاً لجَنابه، منكسراً بين يديه، يرجو رحمتَه ومغفرتَه ويخاف عذابه ومقتَه، تائباً من كلِّ ذنب اكتسبته يداه، ومن كلِّ خطيئة مشت إليها قدماه، مُكثراً من الذِّكر والدعاء والاستغفار والتضرُّع؛ لينقلب من حجِّه خير منقلب، وليعودَ إلى أهله وبلده على خير حال، فيبدأ صفحةً جديدة في حياته، عامرةً بالطاعة والصلاح والاستقامة، بقلب مطمئنٍّ ونفس منيبة وفؤاد مخبت، سائلاً ربَّه الثبات على الإيمان والسلامةَ من الفتن.

أليس من الجدير بالحاجِّ أن يتنبَّه لهذا الأمر الجلل العظيم، ليربحَ من حجِّه ويستفيد، ولا سيما مع كثرة الأمور التي تضعف الإيمان في هذه الحياة، فما بالُنا لا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٢) رواه البزار في «مسنده» ـ كما في «كشف الأستار» (١١٥٣) ـ وحسَّنه الألباني ـ رحمه الله ـ في «السلسلة الصحيحة» (١٨٢٠).

نستفيد من هذا الباب المبارك لتقويته وتتميمه وتكميله، فإنَّ الحجَّ إيمانٌ، وما يقع فيه من مواهب وكمالات كلُّ ذلك كمالٌ في الإيمان وقوَّة.

والعبدُ المؤمن الموَفَّق لا يزال يسعى في تحقيق أمرين عظيمين ومَقصَدين جليلَين:

أحدهما: تحقيق الإيمان وفروعه والتحقق بها علماً وعملاً.

والثاني: السعي في دفع ما يُنافيه وينقضه أو ينقصه من الفتن الظاهرة والباطنة، ويُداوي ما قصر فيه من الأول، وما تجرَّأ عليه من الثاني بالتوبة النصوح، وتدارك الأمر قبل فواته.

وتأمَّل هذين الأمرين في قوله تعالى: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[1]، فذكر سبحانه الأمرين دفع المفسدات والمنقصات، والسعي في تحصيل الخيرات والكمالات.

نسأل الله جلَّ وعلا أن يُصلحَ لنا جميعاً ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادة لنا في كلِّ خير، والموت راحة لنا من كلِّ شرٍّ، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هُداةً مهتدين غير ضالِّين ولا مُضلِّين، إنَّه سبحانه سميع الدعاء، وهو أهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

* * *

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٧.

١٢ ـ الحجُّ وإرغام الشيطان

روى الإمام مالك ـ رحمه الله ـ في موطئه عن طلحة بن عبيد الله بن كَريز: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما رُئي الشيطانُ يوماً هو أصغرُ ولا أدحرُ ولا أحقرُ ولا أغيظُ منه في يوم عرفة، وما ذاك إلاَّ لِمَا يرى من تنزُّل الرحمة وتجاوز الله عن الذنوب العظام»[١]، وهذا حديث مرسل.

وفي نصوص الشرع شواهد عديدة تدلُّ على صحَّة معناه، فإنَّ الشيطانَ ـ وما من ريب في ذلك ـ يغيظُه ويسوؤه تنزُّل الرحمة والمغفرة على عباد الله، وصفحُه وعفوُه عنهم سبحانه، وعتقُه لرقابهم من النار أعاذنا الله والمؤمنين منه.

روى مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطانُ يبكي، فيقول: يا ويله، أُمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأُمرت بالسجود فأبيتُ فلي النار»[٢].

ولهذا فإنَّ عدوَّ الله حريصٌ غاية الحرص على إفساد حجِّ الإنسان وتفويت ثوابه عليه من خلال سبل عديدة ومسالك متنوِّعة بدءً من أوَّل مسير الإنسان وانطلاقه إلى الحجِّ، ومروراً بجميع أعماله وسائر مناسكه ويجند لذلك جنوده ويُهيِّئ لذلك عتاده.

يقول الإمام مجاهد بن جبر رحمه الله: «ما من رفقة تخرج إلى مكة إلاَّ جهَّز معهم إبليس مثلَ عُدَّتهم» رواه ابن أبي حاتم في تفسيره[٣].

---

(١) «الموطأ» (١٢٦٩).

(٢) «صحيح مسلم» (٨١).

(٣) ذكره ابن القيم في «إغاثة اللهفان» (١/ ١٠٩).

ويشهد لهذا قول الله تعالى عن عدوِّه إبليس: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾(١).

قال عون بن عبد الله رحمه الله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ قال: «طريق مكة»، وهذا بلا ريب من صراط الله المستقيم الموصل إلى رضوانه والمفضي إلى جنَّة النعيم، والصراط معناه أوسعُ من هذا.

ولذا قال ابن جرير رحمه الله: «والذي قاله عونٌ وإن كان من صراط الله المستقيم، فليس هو الصراطَ كلَّه، وإنَّما أخبر عدوُّ الله أنَّه يقعد لهم صراطَ الله المستقيم، ولم يُخصِّص منه شيئاً دون شيء؛ لأنَّ الخبيث لا يألو عباد الله الصدَّ عن كلِّ ما كان لهم قُربةٌ إلى الله»(٢). اهـ.

وفي «المسند» للإمام أحمد من حديث سَبْرَة بن فاكِه رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الشيطان قعد لابن آدمَ بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام فقال له: أتُسلم وتذَرُ دينَك ودينَ آبائك وآباء أبيك؟ قال: فعصاه فأسلَم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال أتُهاجر وتَذَرُ أرضَك وسماءَك؟ وإنَّما مثلُ المهاجر كمثل الفرس في الطِّوَل، قال: فعصاه فهاجر، قال: ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: هو جَهْدُ النَّفْس والمال، فتُقاتِلُ فتُقتَلُ فتُنكَحُ المرأةُ ويُقسَمُ المالُ؟ قال: فعصاه فجاهد، فقال رسول الله ﷺ: فمَن فعل ذلك منهم فمات كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة، أو قُتل كان حقًّا على الله أن يُدخله الجنَّة، وإن غرِقَ كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة، أو وَقَصَتْهُ دابَّةٌ كان حقًّا على الله أن يُدخلَه الجنَّة»(٣).

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان: ١٦، ١٧.

(٢) «جامع البيان» (٥/ ٤٤٤).

(٣) «المسند» (١٥٩٥٨)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (١٦٥٢).

والشاهد من هذا الحديث أنَّ الشيطان جالسٌ للإنسان في كلِّ طريق، وهو أحرصُ ما يكون عليه عندما يهمُّ بالخير أو يدخلُ فيه، فهو يشتدُّ عليه حينئذ ليقطعه عنه.

وقد ثبت في الصحيح عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «إنَّ عفريتاً من الجنِّ تفلَّت عليَّ البارحةَ ليقطعَ عليَّ صلاتي»[(١)]، وكلَّما كان الفعلُ أنفعَ للعبد وأحبَّ إلى الله كان اعتراض الشيطان له أكثر، فهو عدوٌّ لدودٌ للمؤمنين، لا همَّ له ولا غاية إلاَّ إفسادُ عقائدهم وهدمُ إيمانهم، وخلخلةُ يقينهم، وصرْفهم عن السبيل المفضية إلى رضوان الله والجنَّة.

ولهذا فإنَّ الله حذَّرنا منه أشدَّ التحذير، وبيَّن لنا أخطارَه وعواقبَ اتِّباعه الوخيمة، وأنَّه عدوٌّ للمؤمنين، وأمرهم أن يتَّخذوه عدوًّا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[(٣)]، وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[(٤)]، وقال تعالى: ﴿يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾[(٥)].

قال ابن الجوزي رحمه الله: «فالواجبُ على العاقل أن يأخذَ حذرَه من هذا العدوِّ الذي قد أبان عداوتَه من زمن آدم عليه الصلاة والسلام، وقد بذل عمرَه

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٦١)، و«صحيح مسلم» (٥٤١).

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٤) سورة النور، الآية: ٢١.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

ونفسَه في فساد أحوال بني آدم، وقد أمر الله بالحذر منه ...»(١)، ثم ذكر نصوصاً عديدة في التحذير منه ومن كيده.

والآياتُ في التحذير منه ومن كيده كثيرة، والعبدُ لا وقاية له من الشيطان إلاَّ بالالتجاء إلى الله والتعوُّذ به من شرِّه وملازمة ذكره والمحافظة على طاعته، ومَن استعاذ بالله أعاذه الله وحفظَه ووقاه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢)، وقال: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

ومَن لازَمَ ذكرَ الله كان في حصنٍ من الشيطان وفي حرزٍ من شرِّه، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾(٤).

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن النبيِّ ﷺ أنَّ يحيى ابن زكريا عليهما السلام قال لقومه: «... وآمرُكم بذكر الله كثيراً، وإنَّ مثلَ ذلك كمثل رجل طلبه العدوُّ سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً، فتحصَّن فيه، وإنَّ العبدَ أحصنُ ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله»(٥).

---

(١) «تلبيس إبليس» (ص/ ٢٣).
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٧، ٩٨.
(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣٦.
(٥) «المسند» (١٧٨٠٠)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (١٧٢٤).

والشيطانُ لا سلطان له على أهل الإيمان الملتجئين إلى الله المعتمدين عليه سبحانه، فإنَّ اللهَ يحفظُهم منه ويَصرفُ عنهم كيدَه وشرَّه، قال الله تعالى: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[١].

فبيَّن سبحانه في هذه الآية السببَ الأقوى في دفع الشيطان، وهو التحلِّي بحلية الإيمان والتوكل على الله، فإنَّ الشيطان ليس له قدرةٌ على التسلُّط على الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكَّلون.

والفقه في دين الله حرزٌ من الشيطان؛ لأنَّ العلمَ الشرعيَّ نورٌ لصاحبه، ومَن تبصَّر بنور العلم وعرف مصايد الشيطان وحبائلَه ووسائلَه وطرائقَه، وعرف نهاية أتباعه ومآل أوليائه، حذره أشدَّ الحذر، واعتصم بالله منه واستعاذ به سبحانه من شرِّه، وسلك صراط الله المستقيم الذين لا خوف على أهله ولا هم يحزنون.

فنسأل الله أن يعيذنا وإيَّاكم من الشيطان الرجيم، وأن يهدينا جميعاً صراطَه المستقيم، إنَّه سميع مجيب.

* * *

---

(١) سورة النحل، الآيات: ٩٨ ـ ١٠٠.

١٣ ـ الحج والاستغفار

كثيراً ما يأمر الله بالاستغفار، ولا سيما في نهاية الطاعة وعند إتمام العبادة، قال الله تعالى في آيات الحجِّ: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1].

والمراد بالإفاضة هنا أي إلى منى، حيث يقوم الحاجُّ بإكمال أعمال الحجِّ التي هي آخر أعماله، وأمر سبحانه في هذه الأثناء بملازمة الاستغفار؛ ليكون جابراً لما حصل من العبد من نقص، ولما وقع منه من تقصير.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفاً عندهم، وهو رمي الجمار، وذبحُ الهدايا، والطوافُ والسعيُ، والمبيتُ بمنى ليالي التشريق، وتكميلُ باقي المناسك، ولَمَّا كانت هذه الإفاضة يقصد بها ما ذكره، والمذكوراتُ آخرُ المناسك أمر الله تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذِكْرُ الله شُكْرُ الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة والمنَّة الجسيمة، وهكذا ينبغي للَعبد كلَّما فرغ من عبادة أن يستغفرَ الله عن التقصير، ويشكره على التوفيق، لا كمَن يرى أنَّه قد أكملَ العبادةَ ومنَّ بها على ربِّه، وجعلت له محلاً ومنزلةً رفيعة، فهذا حقيق بالمقت ورد العمل كما أنَّ الأول حقيق بالقبول والتوفيق لأعمال أُخر». اهـ.

وقد كان من هدي النَّبيِّ ﷺ ختمُ الأعمال الصالحة بالاستغفار، ولهذا ثبت في «صحيح مسلم»: «أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً»[2]، وورد ختم صلاة الليل بالاستغفار، قال الله تعالى:

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٩.

(٢) «صحيح مسلم» (٥٩١).

﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[١]، وكان يختم مجالسه بالاستغفار، روى أبو داود عن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يقول بأخرة إذا أراد أن يقوم من المجلس: سبحانك اللهمَّ وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك»[٢]، وروى أبو داود عن أبي هريرة، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «مَن جلس في مجلس فكثر فيه لغَطُه، فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللَّهمَّ ربَّنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلاَّ أنت، أستغفرك وأتوب إليك، إلاَّ غفر له ما كان في مجلسه ذلك»[٣].

بل لقد ختم عليه الصلاة والسلام حياتَه العامرةَ بتحقيق العبودية وكمال الطاعة بالاستغفار، ففي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنَّها سمعت رسول الله ﷺ وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مُسنِدٌ إليها ظهرَه يقول: «اللَّهمَّ اغفر لي وارحَمني وأَلحِقني بالرَّفيق الأعلى»[٤] مع ملازمة عظيمة منه للاستغفار في أيام حياته الزكيَّة.

روى مسلم في «صحيحه» عن الأغر المزني رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إنَّه لَيُغانُّ على قلبي، وإنِّي لأستغفر الله في اليوم مائة مرَّة»[٥].

وروى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «والله إنِّي لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّة»[٦].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧.

(٢) «سنن أبي داود» (٤٨٥٩)، وصحَّحه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب» (١٥١٧).

(٣) «سنن أبي داود» (٤٨٥٨)، و«جامع الترمذي» (٣٤٣٣)، وصحَّحه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الترغيب» (١٥١٦).

(٤) «صحيح البخاري» (٤٤٤٠).

(٥) «صحيح مسلم» (٢٧٠٢).

(٦) «صحيح البخاري» (٦٣٠٨).

وروى أبو داود والترمذي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنَّا نعدُّ لرسول الله ﷺ في المجلس الواحد مائة مرَّة: ربِّ اغفر لي وتُب عليَّ، إنَّك أنت التوَّاب الرحيم»(١).

وروى النسائي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنَّ رسول الله ﷺ جمع الناسَ فقال: «يا أيُّها الناس توبوا إلى الله، فإنِّي أتوب إليه في اليوم مائة مرَّة»(٢).

وثبت عنه في «الصحيحين» من حديث أبي موسى الأشعريِّ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه كان يدعو بهذا الدعاء: «اللَّهمَّ اغفر لي خطيئتي وجَهلي، وإِسرافِي فِي أَمرِي، وما أنت أعْلمُ به مِنِّي، اللَّهُمَّ اغفِر لي جِدِّي وهزْلِي، وخطئِي وعمدي، وكلّ ذلك عندي، اللَّهمَّ اغفر لي ما قدّمت وما أخّرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به منّي، أنت المقدِّمُ وأنت المؤخِّرُ، وأنت على كلّ شيءٍ قدير»(٣).

وثبت في الاستغفار صيغٌ كثيرة، وكان كثيرَ الاستغفار صلوات الله وسلامه عليه، حتى قال أبو هريرة رضي الله عنه: «ما رأيت أحداً أكثرَ من أن يقول أستغفر الله وأتوب إليه من رسول الله ﷺ»(٤).

هذا مع أنَّه ﷺ قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾(٥).

---

(١) «سنن أبي داود» (١٥١٦)، و«جامع الترمذي» (٣٤٣٤)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «الصحيحة» (٥٥٦).

(٢) النسائي في «الكبرى» (١٠٢٦٥)، وهو عند مسلم من حديث الأغر (٤/ ٢٠٧٦) بلفظ مقارب.

(٣) «صحيح مسلم» (٢٧١٩).

(٤) «السنن الكبرى» للنسائي (١٠٢٨٨)، و«صحيح ابن حبان» (٩٢٨).

(٥) سورة الفتح، الآية: ١، ٢.

وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى قام حتى تتفطَّر رجلاه، فقلت له: يا رسول الله، أتصنعُ هذا، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ فقال: يا عائشة، أفلا أكون عبداً شكوراً»[١].

وثمارُ الاستغفار وبركاته على أهله لا تُعدُّ ولا تُحصى في تتميم أعمالهم وجبر تقصيرهم، ورفعة مقامهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «الاستغفار يخرج العبد من الفعل المكروه إلى الفعل المحبوب، من العمل الناقص إلى العمل التامّ، ويرفع العبدُ من المقام الأدنى إلى الأعلى منه والأكمل، فإنَّ العابد لله والعارف بالله في كلِّ يوم، بل في كلِّ ساعة، بل في كلّ لحظة يزداد علماً بالله وبصيرةً في دينه وعبوديته بحيث يجد ذلك في طعامه وشرابه ونومه ويقظته وقوله وفعله. ويرى تقصيره في حضور قلبه في المقامات العالية وإعطائها حقّها. فهو يحتاج إلى الاستغفار آناء الليل وأطراف النهار، بل هو مضطرٌّ إليه دائماً في الأقوال والأحوال، في الغوائب والمشاهد، لما فيه من المصالح وجلب الخيرات ودفع المضرّات، وطلب الزيادة في القوّة في الأعمال القلبية والبدنيّة اليقينية الإيمانية»[٢]. اهـ.

وقد أعدَّ اللهُ في الدنيا والآخرة للمستغفرين من عظيم أجوره وكريم مواهبه وجزيل عطاياه ما لا يمكن عدُّه والإحاطةُ به. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٤]، وقال تعالى عن نوح عليه السلام:

---

(١) «صحيح البخاري» (٤٨٣٧)، و«صحيح مسلم» (٢٨٢٠).

(٢) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٩٦).

(٣) سورة النساء، الآية: ١١٠.

(٤) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ﴾(١).

روى ابن ماجه في «سننه» عن عبد الله بن بشر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «طوبى لِـمَن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً»(٢).

نسأل اللهَ جلَّ وعلا أن يجعلنا من عباده التائبين الأوّابين المستغفرين وأن يهدينا سواء السبيل.

وختاماً أسأل الله العليَّ القدير أن يُوفِّق المسلمين لحسن الإفادة من حجِّهم إلى بيته العتيق، وأن يتقبَّل عملَهم بقبول حسن، وأن يغفرَ لنا أجمعين، وأن يجعلنا من عباده المتَّقين الذين يستمعون القولَ فيتَّبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا وعلى آله وصحبه أجمعين.

***

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ ـ ١٢.
(٢) «سنن ابن ماجه» (٣٨١٨)، وصححه الألباني ـ رحمه الله ـ في «صحيح الجامع» (٣٩٣٠).

خطب ومواعظ

مِنْ

حَجَّةِ الوداع

تأليف

عبد الرزَّاق بن عبد المحسن البدر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: فإنَّ خطب النبي ﷺ ومواعظه في حجته التي ودّع فيها المسلمين ذات شأن عظيم ومكانة سامية قرّر فيها عليه الصلاة والسلام قواعد الإسلام ومجامع الخير ومكارم الأخلاق، بكلمات بالغات وعظات نافعات، ممن أوتي جوامع الكلم وبدائع الحكم وكمال النصح وحسن البيان وجزالة الألفاظ وفصاحة القول، مع رحمة بالغة وشفقة عظيمة وحرص على نفع العباد وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق:١٠-١١].

ولما كان الحجّ خير مقام لنصح العباد وتعليم الخير، إذ فيه يجتمع المسلمون من أقاصي الدنيا، وأنحاء المعمورة ملبين نداء الله، قاصدين بيته الحرام، راجين رحمته، خائفين من عذابه، فإن خير هدية تقدم لهم وأتم فائدة يظفرون بها أن يقفوا على خطب نبيهم عليه الصلاة والسلام ومواعظه في هذه المشاعر المباركة في حجة الوداع، فهو الناصح الأمين، والمبلغ المشفق، والمربِّي الحكيم، وهو أنصح الناس للناس، بل هو قدوة الناصحين، وأسوة عباد الله أجمعين ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب:٢١].

وفي هذا الكتيب جمع لطائفة نافعة وجملة مباركة ونخبة طيبة من خطب النبيِّ ﷺ ومواعظه في حجة الوداع، مع شيء من البيان لدلالاتها والتوضيح لمراميها وغاياتها، مما أرجو أن يكون زاداً للوعّاظ، وذخيرة للمذكرين، وبلغة للناصحين، مع الاعتراف بالقصور والتقصير.

وقد جعلتها في ثلاثة عشر درساً متناسبة في أحجامها، ليتسنى بيسر إلقاؤها على الحجّاج أيام الحجِّ على شكل دروس يوميَّة.

وأسأل الله الكريم أن ينفع به، وأن يجعل فيه البركة، وأن يكتب له القبول، فالتوفيق بيده وحده لا رب سواه، ولا إله إلاّ هو، ولا حول ولا قوة إلاّ به، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.

وكتبه

عبد الرزَّاق بن عبد المحسن البدر

[١]

مكانة خطبه ﷺ في حَجَّة الوداع

إنَّ أحسن الخطب وأوفاها بياناً وأتمها نصحاً خطبُ نبيِّنا الكريم ﷺ فقد جمع الله له في خطبه المنيفة جمال البيان وحسن الإفهام وقلة ألفاظ الكلام، بل ما سمع قط كلامُ أحد من البشر أعمَّ نفعاً، ولا أفصح معنى، ولا أصدق لفظاً، ولا أحسن موقعاً ولا أسهل مخرجاً ولا أوفى نصحاً من كلامه الشريف ﷺ، وقد آتاه الله جوامع الكلم وخصه ببدائع الحكم، كما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «بعثت بجوامع الكلم»(١).

قال الزهري رحمه الله: «جوامع الكلم ـ فيما بلغنا ـ أن الله يجمع له الأمورَ الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين ونحو ذلك».

ومن يتأمل خطبه صلوات الله وسلامه عليه يجدُ فيها الوفاء والنصح والبيان، وكان يخطب في كل وقت بما تقتضيه حاجةُ المخاطبين ومصلحتُهم، إلاّ أنها في الجملة كان مدارُها على حمد الله والثناء عليه بآلائه وأوصاف كماله ومحامده وتعليمِ قواعد الإسلام وذكرِ الجنة والنار والمعاد والأمر بتقوى الله وتبيين موارد غضبه ومواقع رضاه.

والحج مناسبة كريمة وفرصة ثمينة للنصح والتوجيه والوعظ والتنبيه والتعليم والإرشاد، إذ القلوب فيه مقبلة والنفوس مطمئنة والرغبة في الخير شديدة، فحريٌّ بالدعاة إلى الله تعالى أن تتضافر جهودهم وتتوافر هممهم في هذا الموسم المبارك نصحاً وتعليماً وإرشاداً وتوجيهاً مقتفين آثار نبيهم الكريم مهتدين بهديه القويم، وأن يكون مرتكزُ كلامهم ما دعا إليه ومحورُ نصحهم وبيانهم ما أرشد إليه، إذ هو عليه الصلاة والسلام أنصحُ الناس للناس، بل هو قدوة الناصحين وإمام المرشدين

---

(١) «صحيح البخاري» (٢٩٧٧)، و«صحيح مسلم» (٥٢٣).

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

وقد كان لخطب النبي ﷺ في حجة الوداع على وجه الخصوص شأنٌ عظيم إذ هي وصية مودع والمودع يستقصي ما لا يستقصي غيرُهُ في القول والفعل، وقد عرّض في خطبته في حجة الوداع بذلك فقال: «فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد -حجتي هذه»(١)، وطفق يودّع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع. ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما في شأن هذه الخطبة: «فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته ﷺ إلى أمته» رواه البخاري(٢).

ويدل لأهمية هذه الخطبة وعظيم شأنها أمورٌ عديدة منها:

أولاً: أنَّ النبيَّ ﷺ ودع الناس على إثرها فهي وصية مودع كما سبق إيضاح ذلك.

ثانياً: أنَّ النبيَّ ﷺ استنصت الناس أي: طلب منهم أن ينصتوا، ففي الصحيحين من حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال له في حجة الوداع: «استنصت الناس»(٣). مما يدل على أهمية الأمر، حيث إن الخطبة لما كانت مشتملة على صلاح الناس وسعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة ناسب أن يأمرهم بالإنصات الذي يؤثر فيهم العلمَ والانتفاع ومن ثم العملَ والارتفاع.

وقد نُقل عن سفيانَ الثوريِّ وغيرِه أنه قال: «أولُ العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر».

ثالثاً: أن النبي ﷺ كان في خطبته تلك يتطاول من أجل إسماع الناس. ففي «المسند» عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يخطب الناس في

---

(١) «صحيح مسلم» (١٢٩٧).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٣٧).

(٣) «صحيح البخاري» (١٢١)، و«صحيح مسلم» (٦٥).

حَجَّة الوداع وهو على الجدعاء واضع رجله في غَراز الرحل يتطاول يقول ألا تسمعون»[١].

رابعاً: أن الله ﷻ فتح أسماع الناس في ذلك اليوم فكانوا يسمعون كلامه ﷺ وهم في منازلهم. ففي سنن النسائي عن عبد الرحمن بن معاذ ﷺ قال: «خطبنا رسول الله ﷺ بمنى ففتح الله أسماعنا، حتى إنْ كنّا لنسمعُ ما يقول ونحن في منازلنا»[٢].

خامساً: أنه ﷺ اتخذ من يبلغ عنه، ففي سنن أبي داود عن رافع بن عمرو المزني قال: «رأيت رسول الله ﷺ يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء، وعليٌّ ﷺ يعبّر عنه، والناس بين قاعد وقائم»[٣].

وقوله: «وعليٌّ ﷺ يعبر عنه» من التعبير، أي: يبلّغ حديثه مَنْ هو بعيدٌ من النبي ﷺ.

سادساً: قوله ﷺ في الخطبة: «ألا هل بلّغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد»[٤] وتكراره لذلك.

سابعاً: أمرُهم بأن يبلغ الشاهدُ منهم الغائب، ففي حديث أبي بكرة ﷺ في الصحيحين قال عليه الصلاة والسلام: «فليبلغ الشاهد الغائب فرب مبلَّغ أوعى من سامع»[٥].

ثامناً: استعماله ﷺ في خطبته أسلوب الحض والتنبيه وشدِّ الانتباه «ألا هل بلغت»، «ألا ليبلغ الشاهد الغائب»، «ألا فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»، وتكرّر مثلُ هذا في مواضع من خطبته. وكذلك أساليبُ التوكيد

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٢٥١)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٨٦٧).

(٢) «سنن النسائي» (٢٩٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٣٤٠).

(٣) «سنن أبي داود» (١٩٥٦)،وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٥٤٩).

(٤) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

(٥) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٧٩).

كقوله: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[١]، وفي هذا ما فيه من الاهتمامِ وتقويةِ الكلام وتثبيتهِ في أذهان سامعيه.

تاسعاً: التأمل في مضامين هذه الخطبة العظيمة ودلالاتها المباركة حيث قرر فيها صلوات الله وسلامه عليه قواعد الملة الحنيفية، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت الملل على تحريمها إلى غير ذلك من المضامين العظيمة التي اشتملت عليها خطبته، مما سنقف على جملته من خلال هذه الرسالة بإذن الله ﷻ.

فكل ذلك يدلُّ دلالة واضحة على أهمية شأن خطبة النبي ﷺ في حجة الوداع وأهمية العناية بها، وأن الحاجة ماسة إلى معرفتها في حق كل مسلم صغير أو كبير ذكر أو أنثى. رزقنا الله البصيرة بسنته والاهتداء بهديه.

* * *

[٢]

خطبة يوم عرفة

إنَّ من خطب النبي ﷺ في الحج خطبتَه يومِ عرفة، وذلك فيما رواه الصحابي الجليل جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في حديثه الطويل الذي وصف فيه حجة النبي ﷺ من خروجه من المدينة إلى أن رجع إليها، وهو حديث عظيم مشتمل على جمل من الفوائد، ونفائسَ من مهماتِ القواعد، وهو مخرج في صحيح الإمامِ مسلمٍ رحمه الله(١).

قال جابر ﷺ في سياق هذا الحديث: «حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فَرُحِلَتْ له، فأَتى بطنَ الوادي فخطب الناس وقال: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا كلُّ شيءٍ من أمر الجاهلية تحت قدميَّ موضوع، ودماءُ الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضعُ من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ كان مُسْتَرْضعاً في بني سعدٍ فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضعُ ربانا، ربا عباسِ بنِ عبد المطلب، فإنه موضوع كلُّه، فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهنَّ بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فُرُشَكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرِّح، ولهن عليكم رزقهُنَّ وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتابَ الله، وأنتم تسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت. فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات، ثم أَذّن، ثم أقام، فصلى الظهر ثم أقام فصلى العصر».

وهي خطبة عظيمة تضمنت أصولاً عظيمةً، وقواعدَ جليلةً، وآداباً كريمة، قال العلامة ابن القيم رحمه الله في وصف هذه الخطبة وبيانِ مضامينها إجمالاً: «فخطب

(١) برقم: (١٢١٨).

الناسَ وهو على راحلته خطبةً عظيمة قرّر فيها قواعد الإسلام، وهدم فيها قواعد الشرك والجاهلية، وقرر فيها تحريم المحرمات التي اتفقت المللُ على تحريمها، وهي الدماء والأموال والأعراض، ووضع فيها أمور الجاهلية تحت قدميه، ووضع فيها ربا الجاهلية كلَّه وأبطله، وأوصاهم بالنساء خيراً، وذكر الحق الذي لهنَّ والذي عليهن، وأن الواجب لهن الرزقُ والكِسوةُ بالمعروف، ولم يقدِّر ذلك بتقدير، وأباح للأزواج ضربهن إذا أدخلن إلى بيوتهن من يكرهه أزواجُهن، وأوصى الأمة فيها بالاعتصام بكتاب الله، وأخبر أنهم لن يضلوا ما داموا معتصمين به، ثم أخبرهم أنهم مسؤولون عنه، واستنطقهم: بماذا يقولون وبماذا يشهدون، فقالوا: «نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت»، فرفع أصبعه إلى السماء، واستشهد الله عليهم ثلاث مرات، وأمرهم أن يبلِّغ شاهدهم غائبهم»[1]. اهـ كلامه رحمه الله.

وقد تضمنت هذه الخطبةُ جملاً مهمة من أمور الدين وآدابه، وهي كما يلي ـ على ضوء ترتيبها في الحديث ـ:

الأولى: تحريم دماءِ المسلمين وأموالِهم، وأكَّد ذلك عليه الصلاة والسلامُ تأكيداً بالغاً: «إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا» وكلُّهم يدرك حرمة بلد الله الحرام، وتَضَاعُفَ هذه الحرمة في اليوم الحرام وفي الشهر الحرام. فحرمة دم المسلم وماله شديدة كحرمة بلد الله الحرام في اليوم الحرام وفي الشهر الحرام، فما أعظمها حرمة.

الثانية: وَضْعُ كلِّ شيء من أمر الجاهلية وإبطالُهُ: «ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدميّ موضوع، ودماءُ الجاهلية موضوعة، وإن أوّل دم أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ، كان مُسْتَرضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأوّل رباً أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كلُّه»، ففي هذه الجملة

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٣٣).

إبطالُ أفعال الجاهلية وبيوعها التي لم يتصل بها قبض، وأنه لا قصاص في قتلها، وقوله: «تحت قدميّ موضوع» إشارة إلى إبطاله. وقوله في الربا إنه موضوع كله، المراد بالوضع الرد والإبطال.

الثالثة:الوصية بالنساء والحثُّ على الإحسان إليهن: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف». وهذه الجملة فيها مراعاة حق النساء، والوصية بهن ومعاشرتهن بالمعروف، وقد جاء في هذا المعنى أحاديث كثيرة في الوصية بالنساء وبيان حقوقهن والتحذير من التقصير في ذلك.

الرابعة: الوصية بكتاب الله ﷻ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله» والقرآن كتاب هداية، جعله الله مرشداً للعباد إلى كل طريق نافع وسبيل قويم، يفرقون به بين الحق والباطل والهدى والضلال والخير والشر، فمن تمسك به هدي ومن اعتصم به لم يضل ومن اتبعه لا يشقى، وإنما اقتصر على الكتاب لأنه مشتمل على العمل بالسنة، فمن لم يعمل بالسنة لم يعمل بالكتاب، وكذلك في قوله: «وأنتم تسألون عني» دلالة على العمل بالسنة.

الخامسة: إخبارهم بأنهم مسؤولون عنه ﷺ واستنطاقُهُم بماذا يجيبون «وأنتم تُسألون عني فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بأصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد اللهم اشهد ثلاث مرات»، وقوله: «وأنتم تسألون عني» أي: عن تبليغي للرسالة، وقوله: «فما أنتم قائلون» أي: في حقي. وقولهم «قد بلغت» أي: الرسالة، «وأديت» أي: الأمانة، «ونصحت» أي: الأمة، وقوله «اللهم اشهد» أي: على عبادك بأنهم قد أقروا بأني قد بلغت، وكفى بك شهيداً.

[٣]

إبطال أمور الجاهلية

تقدم ذكرُ ألفاظ خطبة الوداع، تلك الخطبةُ العظيمة التي ألقاها النبي الكريم والناصح الأمين صلوات الله وسلامه عليه على مسامع الصحابة الكرام ﷺ في يوم عرفة المبارك، وتقدم أيضاً الإشارةُ إلى مكانة هذه الخطبة وأهميتها، وبيان مضامينها إجمالاً، وكان مما قرر فيها ﷺ وَضْعُ كلِّ شيء من أمر الجاهلية من الضلال والانحراف والخروج عن الملة الحنيفية السمحة.

يقول ﷺ: «ألا كلُّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماءُ الجاهلية موضوعة، وإن أولَ دم أضع من دمائنا دمُ ابنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضع ربانا ربا عباس بن عبد المطلب، فإنه موضوع كلّه»(١).

وهذا فيه بيان للحال البئيسة، والفساد العريض الذي كان عليه الناس قبل الإسلام في عباداتهم وتعاملاتهم؛ دماءٌ تراق، وأموال تنتهب، وأعراض تنتهك، حيث بلغ فيهم الجهل مبلغه والضلال غايته، فنالوا بذلك مقت الله ﷻ وسخطه.

روى مسلم في «صحيحه» عن عياض بن حمار المجاشعي ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كلُّ مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنهم أتتهم الشياطينُ فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»(٢).

---

(١) قطعة من حديث جابر الطويل، وهو في «صحيح مسلم» (١٢١٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٨٦٥).

فانظر إلى هذه الحال التي التبس فيها الدين على أهل الأرض، وخيم الجهل والضلال، ونُزعت الرحمة، وشاع الظلم والعدوان، حتى جاء الله بالإسلام لينقذ البشرية وليشيعَ الخيرُ ويَشِعَّ الضياء.

نعم، جاء الإسلامُ بالعلم والنور، والخير والهداية، والصلاح والرفعة، وهدم سفهَ الجاهليةِ وغيَّها، وضلالَها وانحرافها، وظلمها وظلامها، فخرج الناس بدعوته وضيائه من الكفر إلى الإيمان، ومن الغي إلى الرشد، ومن الضلال إلى الهدى، ومن الظلمات إلى النور ﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ۝١٠ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الطلاق:١٠-١١].

لقد وافتْ رسالتُهُ ﷺ أهلَ الأرض أحوجَ ما كانوا إليها، فإنهم كانوا بين عبّادِ أوثانٍ، وعبّادِ نيرانٍ، وعبَّادِ كواكب، ومغضوبٍ عليهم قد باؤوا بغضب من الله، وحيرانٍ لا يعرف ربّاً يعبده، ولا بماذا يعبده، والناسُ يأكلُ بعضُهم بعضاً، مَنْ استحسن شيئاً دعا إليه، وقاتل من خالفه، وليس في الأرض موضعُ قدمٍ مشرقٌ بنور الرسالة، فأغاث الله به البلاد والعباد، وكشف به تلك الظُّلَم، وأحيا الخليقة بعد الموت، فهدى به من الضلالة، وعلَّمَ به من الجهالة، وكثَّرَ به بعد القلة، وأعز به بعد الذِلة، وأغنى به بعد العَيلة، وفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً، فعرَّفَ ﷺ الناس ربهم ومعبودهم غايةَ ما يمكن أن تَناله قواهُم من المعرفة، وانجابت عنهم سحائبُ الشكِ والريب، وعَرَّفهم الطريقَ الموصلَ إلى ربهم ورضوانِه ودارِ كرامته فلم يدع حسناً إلاّ أمرهم به، ولا قبيحاً إلا نهاهم عنه، وعَرَّفهم حالَهم بعد القدوم على ربهم أتم تعريف، فهدى الله به القلوبَ من ضلالها، وشفاها من أسقامها، وأغاثها من جهلها[1]. فما أعظم نعمة الله على عباده ببعثته حيث اندحرت الجاهليةُ، وحلَّ النور، وانقشع الظلام، وشع الضياء.

وانظر إلى عزة الإسلام العظيمة، ورفعته وشموخه، ففي مكة حيث كانت تخيمُ

---

(١) ينظر «جلاء الأفهام» لابن القيم (ص/ ١٩٢-١٩٥).

الجاهليةُ ويهيمنُ الضلالُ يضعُ النبيُّ ﷺ كلَّ ضلالِ الجاهليةِ تحت قدميه الشريفين صلوات الله وسلامه عليه، ليعلو نورُ الإسلام وضياءُ الدين، ولتندحر الجاهليةُ الجهلاء والضلالةُ العمياء، قال الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣٣].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ [آل عمران:١٦٤]، وقال تعالى: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

فلله الحمد الذي أنقذنا معاشر المسلمين ببعثة محمد ﷺ من تلك الظلماتِ والجهالات، وفَتَحَ لنا به باب الهدى والخضوعِ لرب الأرض والسماوات، وأغنانا بشريعته التي تدعو إلى الحكمة والموعظة الحسنة، وتتضمنُ الأمرَ بالعدل والإحسان، والنهيَ عن الفحشاء والمنكر والبغي، فله المنة والفضل على ما أنعم به علينا، وإليه الرجاء والرغبة أن يوزعنا شكر هذه النعمة، وأن يفتح لنا أبواب التوبة والمغفرة والرحمة.

والواجب على كل مسلم أن يعرف لهذه النعمة قدرها، وأن يحفظ لها مكانتها، وأن يحافظ عليها، صلاحاً في نفسه، وإصلاحاً في مجتمعه، سائراً على سنن الإسلام المستقيم وصراطه القويم، حَذِراً غاية الحذر من أعمال الجاهلية وغيها وسفهها وضلالها، لينال رضى الله ورحمتَه، وليسلم من سخطه سبحانه ومقته، وقد ثبت في الحديث أن النبي ﷺ قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثةٌ: ملحد في الحرم، ومبتغٍ في الإسلام سنةَ الجاهلية، ومطّلبُ دمَ امرئ بغير حق ليهريق دمه». رواه البخاري في «صحيحه» عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما[1].

ولا تفوت الإشارةُ هنا إلى كتاب نافع ومؤلف قيم في هذا الباب العظيم، ألا

---

(١) برقم: (٦٨٨٢).

وهو كتاب «**المسائلُ التي خالفَ فيها رسولُ الله ﷺ أهلَ الجاهلية**» للإمام المصلح، والعلامة المجدِّد شيخِ الإسلام محمدِ بن عبد الوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ ينبغي أن يفيد منه كل مسلم، ولذا قال في مقدمته: «هذه أمور خالف فيها رسولُ الله ﷺ ما عليه أهلُ الجاهلية الكتابيين والأمِّيِّين مما لا غناء لمسلم عن معرفتها». فجزاه الله خيراً ونفع بعلومه ونصحه، وأعاذنا سبل أهل الجاهلية ومسالك أهل الزيغ والضلال، إنه سبحانه خير مسؤول.

* * *

[٤]

الوصية بالنساء

إنَّ مما جاء في خطبة النبي ﷺ يومَ عرفة وصيتَهُ ﷺ بالنساء، ومراعاةِ حقوقهنَّ، والإحسانِ إليهن، ومعاشرتِهنَّ بالمعروف، قالﷺ: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشَكُم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف»(١).

وهي وصية عظيمة بالمرأة، من تقوى الله ﷻ القيامُ بها ومراعاتُها، لقوله: «فاتقوا الله في النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله» أي: أن لهن أماناً فلا يؤذين، فهنَّ آمنات عندكم بأمان الله.

وقوله: «واستحللتم فروجهن بكلمة الله» أي: إذنِهِ لكم وشرعِهِ وتحليلِهِ كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النساء: ٣].

فلتقر المرأةُ المسلمةُ عيناً بهذه الحفاوة والإكرام، والرعاية والإحسان، حيث خصّها رسولُ الله ﷺ بالوصية بها خيراً في هذا المقام العظيم، وفي هذه الخطبة العظيمة خطبةِ الوداع، كما أنهﷺ خصها بالوصية بها في غير مقام، ومن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالنساء فإن المرأة خُلقت من ضِلَع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذَهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء»(٢).

وهنا يجب أن تعيَ المرأةُ المسلمة أنها تعيش تحت ظلال الإسلام حياةَ عزٍّ وكرامة، وحشمةٍ ونيلٍ لحقوقها الشرعية التي أوجبها الله لها، خلافاً لما كانت تعيشه المرأة في الجاهلية.

---

(١) هو في «صحيح مسلم» (١٢١٨) بطوله من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) «صحيح البخاري» (٣٣٣١)، و«صحيح مسلم» (١٤٦٨).

ومن ينظر لحال المرأة المسلمة في ظل تعاليم الإسلام الكريمة، وتوجيهاته العظيمة، يجد أن الإسلام منقذ للمرأة من براثن الرذيلة، ومخلص لها من حمأة الفساد، إذ هي في كنفه تعيش حياة الطهر والعفاف، والستر والحياء، منيعة الجانب، رفيعة القدر، ومن يقارن بين حالها في ظل الإسلام وأحوالها في الجاهلية يجد الفرق الشاسع، والبون العظيم في نكاحها وأسلوبِ التعامل معها.

روى البخاري في «صحيحه»[1] عن عروة بن الزبير أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته: «أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاحُ الناس اليوم يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيُصْدِقها ثم يَنْكحها، ونكاحٌ آخر كان الرجلُ يقول لامرأته إذا طَهُرت من طمثها أَرسلي إلى فلانٍ فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجُها ولا يمسُّها أبداً حتى يتبين حملُها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملُها أصابها زوجُها إذا أحب، وإنما يَفعلُ ذلك رغبة في نجابةِ الولد، فكان هذا النكاحُ نكاحَ الاستبضاع، ونكاحٌ آخر، يجتمعُ الرهطُ ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلُّهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومر ليلٌ بعدَ أن تضعَ حملَها أرسلت إليهم، فلم يستطعْ رجلٌ منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد وَلدت فهو ابنك يا فلان، تسمِّي مَن أَحبَّت باسمه فيُلحق به ولدُها، ولا يستطيع أن يمتنع عنه الرجل، والنكاحُ الرابع: يجتمع الناسُ الكثيرون فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهنَّ البغايا، كنَّ ينصبن على أبوابهن الرايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جُمعوا لها ودَعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون فالتاطته به، ودعي ابنه لا يمتنع من ذلك، فلمّا بعث محمدٌ ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كلَّه إلا نكاح الناس اليوم». انتهى خبر عائشة رضي الله عنها.

---

(١) رقم: (٥١٢٧).

وقد كانت المرأة في الجاهلية تشترى وتباع كالبهيمة والمتاع، وكانت تُكره على الزواج وعلى البغاء، وكانت تُورث ولا تَرث، وكانت تُملك ولا تَملك، وكان أكثرُ الذين يملكونها يَحْجُرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل، وكانوا يرون للزوج الحقَّ في التصرف بمالها من دونها إلى غير ذلك من أنواع الظلم والاضطهاد الذي كانت تقاسيه المرأة وتتجرع مرارته فأنقذها الله بالإسلام.

إنَّ الدِّين الإسلاميَّ الحنيف بتوجيهاته السديدة، وإرشاداته الحكيمة صان المرأة المسلمة وحفظ لها شرفها وكرامتها، وتكفل بتحقيق عزها وسعادتها، وهيأ لها أسباب العيش الهنيء، بعيداً عن مواطن الريب والفتن، والشر والفساد، وتُعَدُّ توجيهاتُ الإسلام وإرشاداتُه صِمامَ أمانٍ للمرأة، بل للمجتمع بأسره من أن تحلَّ به الشرورُ والفتن، وأن تنزل به البلايا والمحن، وإذا ترحلت ضوابطُ الإسلام المتعلقةُ بالمرأة عن المجتمع حل به الدمار، وتوالت عليه الشرور والأخطار، والتاريخ من أكبر الشواهد على ذلك، إذ مَنْ يتأملُ التاريخَ على طول مداه يجد أن من أكبر أسباب انهيار الحضارات وتفكُّك المجتمعات، وتحلل الأخلاق، وفُشُوِّ الرذائل، وفساد القيم، وانتشار الجرائم هو تحللُ المرأة من تعاليم الدين القويمة، وإرشاداته الحكيمة، وتوجيهاته المباركة.

ومن الواجب على المرأة المسلمة أن تتلقى كلَّ تعاليم الإسلام بانشراح صدر، وطيب قلب، وحسن تطبيق وعمل، لتحيى حياة هنيئة، وتفوز برضا ربها وسعادة الدنيا والآخرة، ومن الواجب على أولياء أمور النساء حسنُ رعايتهن وتأديبهن بآداب الإسلام، وحفظُ حقوقهن، وإكرامهُن والإحسانُ إليهن طاعةً لله سبحانه، وطلباً لثوابه، وتحقيقاً لتقواه، والله وحده المستعان لا ربَّ سواه، ولا حول ولا قوَّة إلَّا به.

***

[٥]

تحريم الدماء والأموال والأعراض

لقد ثبت في «الصحيحين» وغيرهما أنَّ النبيَّ ﷺ خطب الناس يوم النحر وكان أعظمَ ما أكد عليه تحريمُ دماء المسلمين وأموالِهم وأعراضهم، وقد جاء في هذا عدّة أحاديث عن غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

منها حديثُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: «يا أيها الناس، أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام. قال: فأيُّ بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام. قال: فأيُّ شهر هذا؟ قالوا: شهرٌ حرام. قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، فأعادها مراراً ثم رفع رأسه فقال: اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ ـ قال ابن عباس رضي الله عنهما: فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أمته ـ، فليبلغ الشاهدُ الغائب، لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». رواه البخاري[١].

وحديث أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي رضي الله عنه قال: «خطبنا النبيُّ ﷺ يوم النحر قال: «أتدرون أيَّ يوم هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليس يومُ النحر؟ قلنا: بلى. قال: أيُّ شهر هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس ذو الحجة؟ قلنا: بلى. قال: أيُّ بلد هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم. فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: أليست بالبلدة الحرام؟ قلنا: بلى. قال: فإن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا إلى يوم تلقون ربكم، ألا هل بلغت؟ قالوا: نعم. قال: اللهم اشهد، فليبلغ الشاهدُ الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». متّفق عليه[٢].

---

(١) رقم: (١٧٣٩).

(٢) «صحيح البخاري» (١٧٤١)، و«صحيح مسلم» (١٦٤٩).

وحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ بمنى: «أيُّ يوم هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: فإن هذا يوم حرام، أفتدرون أيَّ بلد هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: بلد حرام، أفتدرون أيَّ شهر هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهر حرام، قال: فإن الله حرّم عليكم دماءكم وأموالكم وأعراضكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا، في بلدكم هذا». رواه البخاري[(١)].

وحديث جرير بن عبد الله البجلي ﷺ قال له في حَجَّة الوداع: «استنصت الناس»، فقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض». والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

وقد دلَّت هذه الخطبة العظيمة، والكلمات القويمة، على عظم حرمة دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم وعصمتِها، وأنه لا يحل الاعتداءُ عليها بأيِّ نوع من الاعتداء.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «والأصل أن دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم محرمة من بعضهم على بعض لا تحل إلا بإذن الله ورسوله، قال النبي ﷺ لما خطبهم في حجة الوداع: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا»[(٢)]، وقال ﷺ: «كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[(٣)]، وقال ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فهو المسلم له ذمة الله ورسوله»[(٤)]، وقال: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قيل: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه أراد قتل صاحبه»[(٥)]، وقال: «لا ترجعوا بعدي

(١) البخاري (١٧٤٢).

(٢) رواه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) رواه البخاري (٣٨٤).

(٥) رواه البخاري (٣١)، ومسلم (٢٨٨٨) عن أبي بكر رضي الله عنه.

كفَّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[١]، وقال: «إذا قال المسلم لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما»[٢]. وهذه الأحاديث كلها في الصحاح»[٣]. اهـ كلامه رحمه الله.

وقد أكَّد النبيَّ ﷺ حرمة هذه الثلاث، الدماءِ والأموال والأعراض تأكيداً بالغاً، وغلظ شأنها تغليظاً عظيماً، وجَعل حرمتها كحرمة اليوم الحرام في الشهر الحرام في البلد الحرام، وكرر ذلك على أسماعهم اهتماماً بالمقام وتعظيماً للأمر، وأمر شاهدَهم أن يبلغ غائبهم بذلك، وقد استدعى عليه الصلاة والسلام اهتمامهم، وشدَّ أذهانهم بسؤالهم عن اليوم الذي هم فيه، وعن الشهر وعن البلد، وذَكَّرهم بحرمتها، وحُرمتُها معلومةٌ عندهم متقرِّرةٌ في نفوسهم، وهو عليه الصلاة والسلام إنما ذكر ذلك توطئة لبيان حرمة دم المسلم وماله وعرضه.

قال الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وإنما شبَّه حرمة الدم والعرض والمال بحرمة اليوم والشهر والبلد لأن المخاطبين بذلك كانوا لا يرون تلك الأشياء، ولا يرون هتك حرمتها، ويعيبون على من فعل ذلك أشدَّ العيب، وإنما قدم السؤال عنها تذكاراً لحرمتها، وتقريراً لما ثبت في نفوسهم ليبني عليه ما أراد تقريره على سبيل التأكيد»[٤]. اهـ.

ثم إنَّ النبي ﷺ حذر تحذيراً آخر في هذه الخطبة يتعلق بالدماء وحرمتها فقال: «لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض»[٥].

وهذا تحذير بالغ، «فقد سمى من يضرب بعضهم رقاب بعض بلا حق كفاراً، وسمى هذا الفعل كفراً»[٦]، وليس هذا بالكفر الناقل من ملة الإسلام، بل هو كفر

---

(١) رواه البخاري (١٢١)، ومسلم (٦٥) عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠) عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٣) «مجموع الفتاوى» (٣/ ٢٨٣).

(٤) «فتح الباري» (٣/ ٥٧٦).

(٥) سبق تخريجه.

(٦) «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧/ ٣٥٥).

دون كفر، وهو يدل على أن هذا العمل من شعب الكفر الذميمة وخصاله المشينة، وقد جاء الإسلام بالتحذير منها والنهي عنها، تحقيقاً للوئام، وجمعاً للقلوب، وحفظاً للدماء أن تزهق بغير حق وأن تراق بلا موجب، وفي معنى هذا الحديث قول النبي ﷺ: «سبابُ المسلم فسوقٌ، وقتاله كفر»(١).

فالواجب على كل مسلم أن يكون على حذر شديد من الوقوع في هذا الإثم المبين والذنب الوخيم ألا وهو الاعتداء على دماء المسلمين أو أموالهم أو أعراضهم.

وقد كتب رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما أن اكتب إليَّ بالعلم كلِّه. فكتب إليه: «إنَّ العلم كثير، ولكن إن استطعت أن تلق الله خفيف الظهر من دماء الناس، خميص البطن من أموالهم، كاف اللسان عن أعراضهم، لازماً لأمر جماعتهم، فافعل»(٢).

فيا لها من نصيحة ما أبلغها، وعلمٍ نافع ما أجمعه، وبالله وحده التوفيق.

***

---

(١) رواه البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٢٢٢).

[٦]
خمسُ خصالٍ موجبةٌ لدخول الجنة

ومما ورد في ذكر خطبة النبي ﷺ في حجَّة الوداع حديثُ أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فقال: «اتقوا ربكم وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة مالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم»[(١)]. رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح. ورواه أحمد والحاكم بلفظ: «اعبدوا ربكم»[(٢)].

وهي وصيَّةٌ جامعةٌ في ذكر موجبات دخول الجنة، وأسباب الظفر بنعيمها، والفوز بخيراتها وملذاتها، وهي الدار التي أعدها الله لعباده المطيعين وأوليائه الصالحين، وجعل فيها من النعيم الكريم والثواب العظيم، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، وفي قوله ﷺ في هذا الحديث: «تدخلوا جنة ربكم» إضافة الجنة إلى الرب سبحانه، وهذا فيه تشريفٌ لها، وتعليةٌ لشأنها، ورفعٌ لقدرها.

وقد ذكر النبي ﷺ خمسة أسباب عظيمة لدخول الجنة ونيل ما فيها من ثواب ونعيم.

الأول: قوله «اتقوا ربكم» أي: بفعل أوامره، والبعد عن نواهيه، فأصل التقوى أن يجعل العبدُ بينه وبين ما يخافه وقاية تقيه منه، وتقوى العبد لربه أن يجعل بينه وبين ما يخشاه من ربه من غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك، وهو فعلُ طاعته، واجتنابُ معاصيه، كما قال طلق بن حبيب ـ رحمه الله ـ: «تقوى الله عمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله، وترك معصية الله على نور من الله خيفة عقاب الله»[(٣)]. فتقوى الله عز وجل جدٌّ واجتهاد، ونصح للنفس بطاعة الله والتقرب إليه بما

---

(١) «جامع الترمذي» (٦١٦)، وصحَّحه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٣٣٧).

(٢) «مسند أحمد» (٥/ ٢٥١)، و«مستدرك الحاكم» (١/ ٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٨٦٧).

(٣) رواه عبد الله بن المبارك في «الزهد» (١٣٤٣)، وهناد بن السري في «الزهد» (٥٣٢)، وصححه الألباني في «تخريج كتاب الإيمان» لابن أبي شيبة (ص/ ٣٩).

يرضيه، ولا سيما فعلُ الفرائض والواجبات، والبعدُ عن المعاصي والمنكرات.

ويدخل في تقوى الله الإيمانُ بأصول هذا الدين وعقائده القويمة، والقيام بشرائع الإسلام وعبادته، فكل ذلك من خصال التقوى ومن أوصاف المتقين، كما قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

الثاني: قوله: «وصلُّوا خمسكم» أي: حافظوا على الصلوات الخمس المفروضة، فإن المحافظة عليها من موجبات دخول الجنة، وإضاعتَها من موجبات دخول النار، وهي عماد الدين وآكد أركانه بعد الشهادتين، وهي صلة بين العبد وربه، وهي أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة، فإذا صلحت صلح سائر عمله، وإذا فسدت فسد سائر عمله، وهي الفارقة بين المسلم والكافر، فإقامتها إيمان، وإضاعتها كفر، فلا دين لمن لا صلاة له، ولا حظَّ في الإسلام لمن ضيع الصلاة.

ففي «المسند» وغيره عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه ذكر الصلاة يوماً فقال: «من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور ولا برهان ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون وفرعون وهامان وأبيِّ بن خلف»(١).

الثالث: قوله «وصوموا شهركم» أي: شهر رمضان المبارك بالامتناع في نهاره عن الطعام والشراب وسائر المفطرات، وهو شهر واحد يمر كلَّ عام كتب الله على

---

(١) «مسند أحمد» (٢/ ١٦٩)، و«صحيح ابن حبان» (١٤٦٧)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٩٢): ورجال أحمد ثقات، وحسن إسناده الشيخ عبد العزيز بن باز في «مجموع فتاويه» (١٠/ ٢٧٨).

العباد صيامه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٤]، وهي قليلة وصيامها في غاية اليسر والسهولة، يجتمع فيه المسلمون كلُّهم على أداء هذه الطاعة، فيتركون فيه شهواتهم الأصليةَ من طعامٍ وشراب ونكاح، ويعوضهم الله عن ذلك من فضله وإحسانه تتميمَ دينهم، وزيادة كمالهم، ونيل أجره العظيم وبره العميم، وفي الجنة باب يقال له الريان لا يدخل منه إلا الصائمون.

الرابع: قوله: «**وأدُّوا زكاة مالكم**» أي: التي فرض الله عليكم، وجعلها حقاً في المال، وهي لا تجب على فقير ليس عنده نصاب زكوي، وإنما تجب على الأغنياء تتميماً لدينهم وإسلامهم، وتنمية لأموالهم وأخلاقهم، ودفعاً للآفات عنهم وعن أموالهم، وتطهيراً لهم من السيئات ومواساةً لمحاويجهم وفقرائهم، مما يدل على كمال هذه العبادة وعظم نفعها.

الخامس: قوله: «**وأطيعوا ذا أمركم**» وفي هذا الأمر بالسمع والطاعة لولاة أمر المسلمين في غير معصية الله والنصح لهم، وعدم الخروج عليهم، ونزع اليد من طاعتهم، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

ومن تأكيد النبي ﷺ على هذا الأمر في حجة الوداع ما رواه مسلم في «صحيحه»(١) عن يحيى بن حصين قال: سمعت جدتي تحدث أنها سمعت النبي ﷺ يخطب في حجة الوداع وهو يقول: «ولو استعمل عليكم عبد يقودكم بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا»، فالواجب اتخاذ ذلك ديناً وقربة يُتقرب بها إلى الله ﷻ، فالذي أمر بطاعة ولاة الأمر هو الذي أمر بالصلاة والصيام والزكاة، وكلُّ ذلك من موجبات دخول الجنة ونيلِ رضا الله ﷻ.

---

(١) برقم: (١٨٣٨).

وقد أضيفت هذه الخصالُ الخمس في الحديث إلى المؤمنين لأنها من خصوصيتهم وموجبات كمالهم.

قال الطيبي ـ رحمه الله ـ: «حكمةُ إضافةِ هذا وما بعده إليهم إعلامُهُم بأن ذواتِ هذه الأعمالِ بكيفيتها المخصوصة من خصوصياتهم التي امتازوا بها عن سائر الأمم، وحثُّهُم على المبادرة للامتثال بتذكيرهم بما خوطبوا به، وتذكيرُهم بأن هذه الإضافةَ العمليةَ يقابلها إضافةٌ فضليةٌ هي أعلى منها وأتمُّ، وهي الجنةُ المضافةُ إلى وصف الربوبية المشعرِ بمزيد تربيتهم وتربيةِ نعيمهم بما فارقوا به سائر الأمم»[(١)]. اهـ.

اللهم إنا نسألك التوفيق لدخول الجنة دار النعيم المقيم، والإعانة على القيام بموجبات دخولها إنك سميع مجيب.

* * *

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٣/ ٢٣٨).

[٧]

بيان مَن المؤمن، ومَن المسلم، ومَن المجاهد، ومَن المهاجر

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن فضالة بن عبيد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ في حجَّة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب»[١].

فهذا الحديث الذي هو من جملة وصايا النبي ﷺ وتعليمه لأمته في حجة الوداع فيه بيان لكمال مسميات هذه الأسماء الجليلة: الإيمانِ والإسلام والجهاد والهجرة، وبيانٌ للمستحقين لهذه الأسماء على الحقيقة الواجبة لهم، والتي يترتب عليها السعادة التامة في الدنيا والآخرة، وذكرٌ لحدودها بكلام جامع شامل.

١ـ فالمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، فإن الإيمان إذا تمكن في القلب، وامتلأ القلب به أوجب لصاحبه القيام بحقوق الإيمان التي من أهمها: رعاية الأمانات، والصدق في المعاملات، والورع عن ظلم الناس في دمائهم وأموالهم، ومن كان كذلك عرف الناس هذا منه وأمنوه على دمائهم وأموالهم ووثقوا به، لما يعلمون منه من مراعاة الأمانات، فإن رعاية الأمانة من أخص واجبات الإيمان كما قال ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له»[٢].

٢ـ والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، وذلك أن الإسلام الحقيقي هو الاستسلام لله وتكميلُ عبوديته والقيام بحقوق المسلمين ولا يتم الإسلام حتى يحب للمسلمين ما يحب لنفسه، ولا يتحقق ذلك إلا بسلامتهم من شر لسانه وشر

---

(١) «مسند أحمد» (٦/ ٢١)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٥٤٩).

(٢) رواه أحمد (٣/ ١٣٥)، وابن حبان (١٩٤) عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وصححه الألباني لغيره في «صحيح موارد الظمآن» (٤٢).

يده، فإن هذا أصل هذا الفرض الذي عليه المسلمون، فمن لم يسلم المسلمون من لسانه أو يده كيف يكون قائماً بالفرض الذي عليه لإخوانه المسلمين؟ ومن بسط في المسلمين يده ولسانه أذىً وعدواناً أين هو من تحقيق الإسلام؟ فسلامتهم من شره القولي والفعلي عنوان على كمال إسلامه.

وفي هذا دلالة على أن المؤمن أعلى رتبة من المسلم، فإن من كان مأموناً على الدماء والأموال كان المسلمون يسلمون من لسانه ويده ولولا سلامتُهم منه لما ائتمنوه، وليس كلُّ من سلموا منه يكون مأموناً عندهم، فقد يترك أذاهم وهم لا يأمنون إليه خوفاً أن يكون ترك أذاهم لرغبة أو رهبة لا لإيمان في قلبه.

ففسر المسلمَ بأمر ظاهر وهو سلامة الناس منه، وفسر المؤمنَ بأمر باطن وهو أن يأمنوه على دمائهم وأموالهم وهذه الصفة أعلى من تلك.

٣ـ والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله، وذلك أن النفس ميالةٌ إلى الكسل عن الخيرات، أمارةٌ بالسوء، سريعةُ التأثر عند المصائب، وتحتاج إلى صبر وجهاد في إلزامها طاعة الله، وثباتها عليها، ومجاهدتها عن معاصي الله، وردعها عنها، وجهادها على الصبر عند المصائب، وهذه هي الطاعات، امتثال المأمور واجتناب المحظور، والصبر على المقدور، فالمجاهد حقيقة من جاهدها على هذه الأمور لتقوم بواجبها ووظيفتها.

وجهاد النفس أربع مراتب:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين

يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق، ويحتمل ذلك كله لله، ذكر هذه المراتب العلامة ابن القيم رحمه الله(١).

وقد ثبت في الحديث أنَّ النبي ﷺ قال: «أفضل الجهاد أن يجاهد الرجل نفسه وهواه»(٢).

وإذا قصّر المسلمون في جهاد أنفسهم ضعفوا عن جهاد أعدائهم، فيحصل بذلك ظهورٌ لأعدائهم عليهم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وحيث ظهر الكفار فإنما ذلك لذنوب المسلمين التي أوجبت نقص إيمانهم، ثم إذا تابوا بتكميل إيمانهم نصرهم الله»(٣).اهـ

٤ـ والمهاجر من هجر الخطايا والذنوب، وهذه الهجرة فرض عين على كلِّ مسلم لا تسقط عن كل مكلّف في كل حال من أحواله، فإن الله حرم على عباده انتهاك المحرمات والإقدام على المعاصي والذنوب، وأوجب عليهم الإقبال على طاعته واتباع رسوله ﷺ، وهي هجرة تتضمن (من) و(إلى) فيهاجر بقلبه من محبة غير الله إلى محبته، ومن عبودية غير الله إلى عبوديته، ومن خوف غير الله ورجائه والتوكل عليه إلى خوف الله ورجائه والتوكل عليه، ومن دعاء غير الله وسؤاله والخضوع له والاستكانة له إلى دعائه وسؤاله والخضوع له والذل له والاستكانة له. ومن غِشْيان الذنوب وارتكابها إلى التوبة منها، والإقبال على الله وحده خوفاً وطمعاً وخشوعاً وتذللاً. وقد ثبت في «صحيح» البخاري أنَّ النبي ﷺ قال: «المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»(٤). والله ﷻ نهى عن الشرك، وعن اتباع الأهواء، وعن فعل

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٦).

(٢) رواه ابن النجار عن أبي ذر رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٠٩٩).

(٣) «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» (٦/ ٤٥٠).

(٤) «صحيح البخاري» (١٠) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

المعاصي والذنوب، فالمهاجر حقاً من هجر هذه الأمور وأقبل على الله وحده مخلصاً، ولنبيه ﷺ متابعاً، وللذنوب والمعاصي مجانباً ومباعداً.

وعلى كلٍّ فهذا الحديث من قام بها دل عليه فقد قام بالدين كلِّه: من سلم المسلمون من لسانه ويده، وأمنه الناس على دمائهم وأموالهم، وهجر ما نهى الله عنه، وجاهد نفسه على طاعة الله، فإنه لم يُبْقِ من الخير الديني والدنيوي الظاهري والباطني شيئاً إلا فعله، ولا من الشر شيئاً إلا تركه، والله وحده الموفق[1].

❊ ❊ ❊

(١) ينظر: «بهجة قلوب الأبرار» لابن سعدي (١٧-١٩).

[٨]
الدعوة لحَمَلَة السنَّة بالنَّضرة

ومن خطب النبي ﷺ في حجَّة الوداع خطبته بالخيف من منى كما في حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ بالخيف من منى فقال: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها ثم أداها إلى من لم يسمعها، فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مؤمن: إخلاص العمل لله، والنصيحة لولي الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تكون من ورائهم»(١). رواه أحمد وابن ماجه والدارمي والحاكم وغيرهم.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «نضر الله امرأً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم، إخلاص العمل له، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن الدعوة تحيط من ورائهم»(٢). رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد وابن حبان وغيرهم، ورواه أبو نعيم في كتابه «أخبار أصبهان» عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خطب رسول الله ﷺ في هذا المسجد مسجد الخيف»، فقال: وذكر الحديث(٣).

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرأً سمع منا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره، فإنه رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغل عليهن قلب مسلم أبداً: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم. وقال: من

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٨٠)، وابن ماجه (٣٠٥٦)، والدارمي (٢٢٨)، والحاكم (١/ ٨٦-٨٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٧٦٦).

(٢) رواه أحمد (١/ ٤٣٧)، والترمذي (٢٦٥٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وابن حبان (٦٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٦١).

(٣) «أخبار أصبهان» (٢/ ٩٠).

كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا، فرّق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما كتب له». رواه أحمد والدارمي وابن حبان وغيرهم[(١)].

وقد روى هذا الحديث جمع من الصحابة بلغت عدتهم أكثر من عشرين صحابياً منهم غير من تقدم: معاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك، والنعمان بن بشير، وأبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله ﷺ، ولذا عدّه غير واحد من أهل العلم في جملة الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ، ولعل من أسباب تواتره كون النبي ﷺ خطب به الناس في مسجد الخيف من منى.

والخيف ما ارتفع عن مجرى السيل، وانحدر عن غلظ الجبل، ومسجد منى يسمى مسجد الخيف لأنه في سفح جبلها، وهو في زماننا هذا مسجد كبير واسع يتسع لآلاف المصلين مع كافة خدماته، قامت على بنائه والعناية به الدولة وفقها الله وحرسها، وتقام فيه أيام الحج دروس عديدة، كما خصص فيه أماكن متعددة لإجابة المستفتين وإرشاد السائلين.

وإنما خطب ﷺ الناس بمنى ليتلقى عنه الجمع الغفير الذي شهد حجَّته ﷺ تعاليم الدين، ويبثوا ما يسمعونه في أقطار الأرض.

والحديث بمجموع طرقه يشتمل على أربع جمل رئيسة:

الجملة الأولى: هي المشتملة على الدعوة لسامعي الحديث ومبلغيه غيرهم.

الجملة الثانية: هي المتضمنة بيان الفائدة من تبليغ الحديث وهي استنباط ما فيه من الفقه.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٨٣)، والدارمي (٢٢٩)، وابن حبان (٦٧)، وصححه الألباني في «صحيح موارد الظمآن» (٩٣).

الجملة الثالثة: المبدوءة بقوله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم ...».

الجملة الرابعة: المبدوءة بقوله ﷺ: «من كان همه الآخرة جمع الله شمله...».

وقد صدّر ﷺ حديثه هذا بدعوة مباركة ميمونة، خص بها رسول الله ﷺ من سمع حديثه، ووعاه وبلّغه كما سمعه، ولو لم يكن في فضل العلم وبيان شرفه إلاّ هذا الحديث لكفى به شرفاً، فإن هذه الدعوة النبوية الكريمة المباركة متضمنة لجمال الظاهر والباطن، فإن النضرة هي البهجة والحسن الذي يكساه الوجه من آثار الإيمان، وابتهاجِ الباطن به، وفرح القلب وسروره والتذاذه به، فتظهر هذه البهجة والسرور والفرحة نضارة على الوجه، ولهذا يَجْمع له سبحانه بين البهجة والسرور والنضرة كما في قوله تعالى: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]، فالنضرة في وجوههم، والسرور في قلوبهم، ثم ما يتلقون من نعيم وثواب على ذلك يظهر نضارة على وجوههم كما قال تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤].

ولا ريب أن هذه الدعوة المباركة لمن حمل السنة وبلغها للأمة بالنضرة تحمل البشارة لمن وقف نفسه، ووفر جهده لخدمة السنة وإبلاغها، وفي هذا حفز للهمم وإذكاء للعزائم، وحمل للنفوس على الجد والمثابرة، والصبر والمصابرة، وبذل الوسع في تحقيق ذلك.

وقد دل الحديث على أن للعلم الذي استحق أهلُه هذه البشارة أربعَ مراتب:

أولها وثانيها: سماعه وعقله، فإذا سمعه ووعاه بقلبه، أي: عقله واستقر في قلبه كما يستقر الشيء الذي يوعى في وعائه ولا يخرج منه، وكذلك عَقْلُه هو بمنزلة عقل البعير والدابة ونحوها حتى لا تشرد وتذهب.

والمرتبة الثالثة: تعاهده وحفظه حتى لا ينساه فيذهب.

والمرتبة الرابعة: تبليغه وبثه في الأمة ليحصل به ثمرته ومقصوده، وهو بثه في الأمة، فهو بمنزلة الكنز المدفون في الأرض الذي لا يُنفق منه وهو معرض لذهابه،

فإنَّ العلم ما لم يُنفق منه ويُعلَّم فإنه يوشك أن يذهب، فإذا أُنفق منه نما وزكا على الإنفاق.

وإنما دعا ﷺ لسامع السنَّة ومبلِّغها بالنضارة جزاءاً وفاقاً لما قام به من بثها، وجعلها بذلك غضة طرية، وسعى في نضارة العلم وإحياء السنة فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وقد جاء عن سفيان بن عيينة رحمه الله أنه قال: «ما من أحد يطلب الحديث إلاّ وفي وجهه نضرة».

* * *

[٩]
ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب المسلم

سبق ذكر خطبة النبي ﷺ في مسجد الخيف بمنى، وبيان اشتمالها على أربع جمل رئيسة مضى الحديث عن الجملة الأولى منها وهي دعوته ﷺ لمن سمع حديث النبي ووعاه وحفظه وبلغه كما سمعه.

أما الجملة الثانية: وهي المتضمنة لبيان الفائدة من تبليغ حديث النبي ﷺ وهي وصوله إلى من يكون أمكن في حفظه وفهمه، وذلك في قوله ﷺ: «فرب حامل فقه لا فقه له، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، وفي الرواية الأخرى قال: «رب حامل فقه ليس بفقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»، ومعنى ذلك: أنه قد يحفظ من لا يفهم، وقد يفهم وغيره أفهم منه، والذي حفظ ولم يفهم مأجور لحفظه السنة وتبليغها، والذي حفظ وفقه أكمل منه، فيكون مأجوراً لحفظه وتبليغه واستنباطه من الحديث ما أمكنه استنباطه فهو يبلغه لغيره، وقد يكون الذي بلغه إليه أفقه منه فيستنبط منه ما لم يفهمه الحامل.

وأما الجملة الثالثة: فهي قوله ﷺ: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»، وهو مشتمل على هذه الخصال العظيمة التي لا يغل عليهن قلب المسلم، وقد ذكر عليه الصلاة والسلام هذه الخصال عقب دعوته لمن سمع السنة ووعاها، وحفظها وبلغها بالنضرة، وهو في غاية المناسبة، وذلك أنه لما كان هذا الثواب العظيم لمن بلغ سنة رسول الله ﷺ يفتقر كسائر الأعمال إلى الإخلاص لله، وعقد النية على النصح للمسلمين ولزوم جماعتهم عقّب ﷺ دعوته الميمونة المباركة لمبلغي سنته بما يدلُّ على أهمية الإخلاص في الأعمال لله، والنصح للمسلمين، ولزوم جماعتهم بقوله: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم»، قال ذلك؛ لأن هذه الخصال الثلاث تستصلح بها القلوب، وتهذب بها

النفوس، وباستشعارها وعقد القلب عليها يكون المسلم جديراً بتحصيل الثواب الجزيل، والأجر العظيم المذكور في الحديث.

وفي قوله ﷺ في الحديث: «ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم» دلالة على أن قلب المسلم لا يحمل الغلّ ولا يبقى فيه الغش، إذا كان متصفاً بهذه الصفات الثلاثة المذكورة في الحديث، لأنها تنفي الغش وتبعده عن القلب.

فالمخلص لله إخلاصه يمنع غلّ قلبه، ويخرجه ويزيله جملة، لأنه قد انصرفت دواعي قلبه وإرادته إلى مرضاة ربه وطلب ثوابه، فلم يبق فيه موضع للغلّ والغش كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فلما أخلص لربه صرف عنه دواعي السوء والفحشاء، ولهذا لما علم إبليس أنه لا سبيل له على أهل الإخلاص استثناهم من شرطته التي اشترطها للغواية والإهلاك، فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

وقوله ﷺ في الحديث: «والنصح لأئمة المسلمين» هذا أيضاً منافٍ للغل والغش، فإن النصيحة لولاة الأمر لا تجامع الغل إذ هي ضدّه، فمن نصح الأئمة والأمة فقد بريء من الغل، والنصح لأولي الأمر من المسلمين إنما يكون بالسمع والطاعة لهم في المنشط والمكره أبراراً كانوا أو فجاراً، وإنما الطاعة في المعروف، فإن أمروا بمعصية الله فلا طاعة للمخلوق في معصية الخالق، وبإرشادهم للخير وترغيبِهم فيه، وتحذيرهم من الشر وتنفيرهم منه، والدعاء لهم بالصلاح والمعافاة، وعدمِ الدعاء عليهم لمنافاة ذلك للنصيحة، لأن جماع النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائناً من كان.

وقوله ﷺ في الحديث: «ولزوم جماعتهم» وهذا أيضاً مما يطهر القلب من الغل

والغش، فإن صاحبه للزومه جماعة المسلمين يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤه ما يسوؤهم، ويسرّه ما يسرهم، مع الموافقة لهم في العقيدة والعمل، والحذر من الخروج عن زمرتهم؛ لئلا تتلقفه الشياطين التي تعمل في الإنسان أعظم من عمل الذئاب فيما ينِدُّ من الغنم.

وقوله ﷺ في الحديث: «فإنَّ دعوتهم تحيط من ورائهم» هو من أحسن الكلام وأوجزه وأفخمه معنى، حيث شبّه دعوة المسلمين بالسور والسياج المحيط بهم، المانع من دخول عدوِّهم عليهم، فتلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام ـ وهم داخلوها ـ لما كانت سوراً وسياجاً عليهم أخبر ﷺ أن من لزم جماعة المسلمين أحاطت به تلك الدعوة التي هي دعوة الإسلام كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شمل الأمة وتلمُّ شعثها وتحيط بها، فمن دخل في جماعتها أحاطت به وشملته، وبذلك أيضاً يكون للمسلم الملازم لجماعة المسلمين نصيب من دعواتهم الطيبة التي تصدر من آحادهم شاملة لعمومهم.

وأمَّا الجملة الرابعة في الحديث: فهي قوله ﷺ: «من كان همه الآخرة جمع الله شمله، وجعل غناه في قلبه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت نيته الدنيا فرَّق الله عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له» وهذا كله راجع إلى الخصلة الأولى من الخصال الثلاث وهي إخلاص العمل لله، فمن أخلص نيته لله وأراد الآخرة يملأ الله قلبه بالغنى، ويبعد الفقر عنه، ويلم شعثه، ويسوق إليه الدنيا من حيث يحتسب ومن حيث لا يحتسب، ومن لم يخلص عمله لله وكان همه الدنيا فإن الله يعاقبه في الدنيا بهذه العقوبات، فيسلب قلبه الغنى ويحول بينه وبين الراحة والطمأنينة فتستولي عليه الهموم، ويبدله بهذا الغنى الذي نزع من قلبه أن يجعل فقره بين عينيه فيكون دائما أمامه لا يغيب عنه، وأحاطت به النكبات من كل جانب[1].

---

(١) ينظر كتاب: دراسة حديث «نضر الله امرأً سمع مقالتي» رواية ودراية، للوالد الكريم الشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر حفظه الله.

[١٠]

إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم

إنَّ من المعاني العظيمة التي أكّد عليها رسول الله ﷺ وقرّرها في حجة الوداع لزومَ تقوى الله ﷻ، والحرصَ على نيل رفيع الرتب، وعالي الدرجات بتحقيقها لا بالفخر بالأنساب والأحساب، فالكلُّ بنو آدم، وآدم من تراب، ولا فضل لعربي على عجمي، ولا عجمي على عربي إلاّ بتقوى الله ﷻ.

روى الإمام أحمد في مسنده[1] عن أبي نضرةَ قال: حدثني من سمع خطبة رسول الله ﷺ في وسط أيام التشريق فقال: «يا أيها الناس ألا إنَّ ربكم واحد، وإنَّ أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلاّ بالتقوى، أبلغت؟ قالوا: بلغ رسول الله ﷺ».

فقرّر ﷺ في هذه الخطبة العظيمة والبيان البليغ أن التفاضل ونيلَ الفضل إنما هو بتقوى الله ﷻ لا بأيِّ أمر آخر، كما قال الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات: ١٣]، فأكرم الناس عند الله أتقاهم له، أي: أكثرهم محافظة على طاعته، وانكفافاً عن معصيته، إذ التقوى هي العمل بطاعة الله على نور من الله رجاءَ ثواب الله، والبعدُ عن معصية الله على نور من الله خيفةَ عقاب الله. وعلى قدر منازل الناس من التقوى تكون منازلهم عند الله، والله جلَّ وعلا عليم خبير، يعلم من يقوم بتقواه ظاهراً وباطناً ممن لا يقوم، ويجازي كلاًّ بما يستحق.

روى البخاري في «صحيحه» عن أبي هريرة ﵁ قال: سئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال:

---

(١) «المسند» (٥/ ٤١١)، قال ابن تيمية في «الاقتضاء» (١/ ٤١٢): بإسناد صحيح، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٦/ ٤٥٠).

فأكرم الناس يوسفُ نبيُّ الله ابنُ نبيِّ الله ابنِ نبي الله ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معَادن العرب تسألون؟ قالوا: نعم، قال: فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا»[(١)].

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[(٢)]، وفي «المسند» للإمام أحمد عن أبي ذر الغفاري ﷺ أن النبي ﷺ قال له: «انظر، فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلَّا أن تفضله بتقوى»[(٣)].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، فالناس إنما يتفاضلون عند الله بالتقوى لا بالأحساب والأنساب، والصور والأموال، والله ﷻ رتب الجزاء والثواب على تحقيق التقوى، والقيام بطاعته سبحانه، فبذلك تثقل الموازين وترتفع الدرجات.

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَـٰلِدُونَ ﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٣].

وفي الحديث قال ﷺ: «ومن بطّأ به عمله لم يسرع به نسبه»[(٤)]، ومعناه: أن العمل هو الذي يَبْلغ بالعبد درجات الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، فمن بطّأ به عمله أن يبلغ به المنازل العالية عند الله تعالى لم يسرع به نسبه فيبلغ به تلك الدرجات، فإن الله رتب الجزاء على الأعمال لا على الأنساب، وقد أمر الله تعالى بالمسارعة إلى مغفرته ورحمته بالأعمال كما قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٥٣)، و«صحيح مسلم» (٢٣٧٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٢٥٦٤ـ(٣٤)).

(٣) «مسند أحمد» (٥/ ١٥٨)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٥٠٥).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣-١٣٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴾ [المؤمنون:٥٧-٦١][1].

فهذه الآيات ونظائرها كثيرٌ في القرآن تدل أن الفوز برضى الله، والسبق إلى المنازل العالية إنما هو بالأعمال الصالحات، والطاعات الزاكيات، والتقرب إلى الله بما يرضيه، وفعل طاعته وطاعةِ رسوله ﷺ، لا أن يعول الإنسان على حسب أو نسب، أو مال أو جاه أو غير ذلك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «إذ الفضل الحقيقي هو اتباع ما بَعث الله به محمداً ﷺ من الإيمان والعلم باطناً وظاهراً، فكل من كان فيه أمكن كان أفضل، والفضل إنما هو بالأسماء المحمودة في الكتاب والسنة مثل: الإسلام والإيمان والبر والتقوى، والعلم والعمل الصالح، والإحسان ونحو ذلك، لا بمجرد كون الإنسان عربياً أو عجمياً أو أسود أو أبيض ولا بكونه قروياً أو بدوياً»[2] اهـ.

وفي هذا المعنى يقول الشاعر:

لعمـــرك مـــا الإنـــسان إلَّا بدينــه ... فلا تترك التقوى اتكالاً على النسب
لقــد رفــع الإســلام سـلمان فـارس ... وقد وضـع الشرك النسيب أبا لهـب

ويشهد لهذا كله ما في «الصحيحين» عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إنَّ آل بني فلان ليسوا لي بأولياء، وإنما وليي الله وصالحو المؤمنين»[3]، فأخبر ﷺ عن بطن قريب النسب أنهم ليسوا بمجرد النسب أولياء، إنما

---

(١) ينظر: «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١/ ٣٠٨).

(٢) «اقتضاء الصراط المستقيم» (ص/ ٤١٥).

(٣) «صحيح البخاري» (٥٩٩٠)، و«صحيح مسلم» (٢١٥).

وليُّه الله وصالحو المؤمنين من جميع الأصناف، وأن الولاية لا تنال بالنسب وإن قرب، وإنما تنال بالإيمان والعمل الصالح، فمن كان أكمل إيماناً وعملاً فهو أعظم ولاية له.

ونسأل الله الكريم أن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يوفقنا لطاعته، وأن يجعلنا من عباده المتقين.

* * *

[١١]

التحذير من كبائر الإثم

إن مما اعتنى النبي ﷺ ببيانه في حجة الوداع التحذيرَ من الموبقات، والنهيَ عن كبائر الذنوب وعظائم الآثام ولاسيما الشرك بالله، وقتل الأنفس المعصومة، والزنى، والسرقة.

فعن سلمة بن قيس الأشجعي ؓ قال: قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ألا إنما هنَّ أربع: أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلاّ بالحق، ولا تزنوا ولا تسرقوا»(١). رواه أحمد والطبراني والحاكم وابن أبي عاصم في السنة بإسناد صحيح(٢).

فحذر عليه الصلاة والسلام من هذه الكبائر العظيمة، والموبقات الوخيمة، ونهى عنها، وفي قوله: «ألا إنما هنَّ أربع» بيان لعظم خطر هؤلاء الأربع الموبقات، وأنهنَّ أكبر الكبائر وأخطرها.

والذنوب منقسمة إلى كبائر وصغائر، والكبيرة هي كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار، أو حدٍّ في الدنيا، أو وعيد في الآخرة بأن توعد فاعله بأنه لا يدخل الجنة، أو لا يشم ريحها، أو نفي عنه الإيمان، أو قيل فيه من فعله فليس منا وأن صاحبه آثم، فهذا كلّه من الكبائر(٣). ويدخل في هذا: الشرك، والقتل، والزنا، والسرقة، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وأكل مال اليتيم، وأكل

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٣٣٩)، والطبراني (٦٣١٧)، والحاكم (٤/ ٣٥١)، وصححه الألباني رحمه الله في «السلسلة الصحيحة» (رقم: ١٧٥٩). وانظر في «الصحيحين» حديث عبادة بن الصامت ؓ في ذكر مبايعة النبي ﷺ أصحابه على البعد عن هذه الأربع. البخاري (١٨).

(٢) وانظر في «الصحيحين» حديث عبادة بن الصامت ؓ في ذكر مبايعة النبي ﷺ أصحابه على البعد عن هذه الأربع. البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩).

(٣) ينظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١١/ ٦٥٠-٦٥٢).

الرِّبا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس، وشهادة الزور، وشرب الخمر، والكذب، والغيبة، والنميمة وغيرها مما ثبت في النصوص أنه من الكبائر.

وقد مدح الله في مواضع من كتابه مجتنبي الكبائر وأثنى عليهم، ووعدهم بكريم المآب وعظيم الثواب والمدخل الكريم.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١].

وأخبر سبحانه أنه أحصى على العباد كل ما اقترفوه من صغير وكبير، وأن كل ذلك مسطر مكتوب يجده العبد أمامه حاضراً يوم القيامة ليجزيَ سبحانه الذين أساءوا بما عملوا ويجزيَ الذين أحسنوا بالحسنى.

قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ [القمر: ٥٣].

وتوعدهم على فعلها أعظم الوعيد، وكلما عظمت الكبيرة عظم الوعيد، واشتد العقاب، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٦٩].

فالكبائر متفاوتة في غلظها وكبرها، كما أنها تغلظ بتكرارها وبالإصرار عليها وبما يقترن بها من سيئات أخر، وأكبر الكبائر الأربع التي نص عليها ﷺ في الحديث المتقدم ونبّه عليها عموم الناس في حجته التي ودع الناس فيها، مؤكداً على التحذير منها، مشيراً إلى كبر خطرها وعظم ضررها على مرتكبها ومقترفها في دنياه وأخراه.

وأكبر هذه الأربع الإشراك بالله ﷻ وليس في الذنوب أكبرُ منه، ولهذا قدمه

كتابه، وكيف يقدره حق قدره من جعل له عدلاً ونداً وشريكاً، تعالى الله عما يشركون.

ثم يلي الشرك في الخطر الثلاث المذكورة في الحديث: قتل الأنفس المعصومة، والزنا، والسرقة. وهي كلها اعتداء في حق المخلوقين، كما أن الشرك اعتداء في حق الخالق سبحانه.

وقتل الأنفس التي حرّم الله قتلها اعتداء على الدماء المعصومة، والزنا اعتداء على الأعراض المصونة، والسرقة اعتداء على الأموال المحترمة، وكل ذلك حرام، وقد سبق ذكرُ قولِ النبي ﷺ في خطبة عرفة، وكذلك في خطبته في منى: «ألا إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا»[1]، فهناك بيّن حرمتها، وهنا حذّر من انتهاكها.

ومما ينبغي أن يعلم أن كل من تاب من أيِّ ذنبٍ كان، فإن الله يتوب عليه، فالتوبة تهدم ما كان قبلها كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

* * *

(١) رواه البخاري (١٧٤١)، ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكرة رضي الله عنه.

عليه الصلاة والسلام بالذكر، تنبيهاً بذلك إلى أنه أعظم ذنب وأكبر خطيئة، فهو ذنبٌ يحط صاحبه يوم القيامة، ويكبُّه على رأسه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابها، وتحرم عليه الجنة فلا يشم لها رائحة ولا يذوق منها لذّة ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وكل ذنب دون الشرك يرجى لصاحبه المغفرة وإن عذبه الله في النار يوم القيامة فإنه لا يخلدْ فيها، وأما المشرك فلا مطمع له بمغفرة، ولا سبيل له لنيل عفو، ولا نجاة له من عذاب النار مخلداً فيها أبد الآبد.

قال ﷺ: «أما أهل النار الذين هم أهلها فإنهم لا يموتون فيها ولا يحيون، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم فأماتتهم إماتة حتى إذا كانوا فحماً أذن بالشفاعة فجيء بهم ضبائر ضبائر فبثوا على أنهار الجنة، ثم قيل: يا أهل الجنة أفيضوا عليهم، فينبتون نبات الحِبة تكون في حميل السيل». رواه مسلم[(١)].

ويدل لهذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

وعجباً ثم عجباً لأمر المشرك يخلقه الله رب العالمين ويعبد غيره من حجر أو شجر أو قبر أو نحو ذلك مما لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا عطاءً ولا منعاً فضلاً من أن يملك شيئاً من ذلك لغيره، ولهذا قال ﷺ عندما سئل: أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك»[(٢)]، فأيُّ ذنب أعظم وأيُّ ظلم أشنع وأيُّ جرم أكبر من أن يُجعل المخلوق الناقص الضعيف شريكاً للرب الخالق العظيم؛ ولذا أخبر الله سبحانه عن المشركين أنهم ما قدروا الله حق قدره في ثلاث مواضع من

---

(١) رقم: (١٥٨) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

(٢) رواه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

[١٢]
لا يدخل الجنّة إلاّ مؤمن

إن أعظم ما قرّره رسول الله ﷺ بكلماته النيرات، وعظاته البالغات في حجة الوداع بيانُ مكانة الإيمان، وأنه أساس السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، وأن الجنة دارَ اللّذّة والحبور والهناءة والسرور لا يدخلها إلا أهل الإيمان، ومن لم يكن مؤمناً فالجنة عليه حرام ولا يشم ريحها، بل يكون مآله إلى نار جهنم خالداً مخلداً فيها.

ففي «مسند» الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ من حديث بشر بن سُحيم قال: خطب رسول الله ﷺ في أيام التشريق أنه: «لا يدخل الجنة إلاّ مؤمن»[(١)].

وبعث من بعث من أصحابه ببيان ذلك وإعلانه في الناس معذرةً إلى الله، وإقامةً للحجة على العباد، كما في المسند عن بشر أيضاً رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أمر أن ينادى أيام التشريق أنه لا يدخل الجنة إلاّ مؤمن»[(٢)]، وفي بعض الروايات أنه ﷺ بعث بشر بن سُحيم فأمره أن ينادي: «ألا إنه لا يدخل الجنة إلّا مؤمن»، وروى مسلم في «صحيحه» عن كعب بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ بعثه وأوسَ بن الحدثان أيام التشريق فنادى: أنه لا يدخل الجنة إلاّ مؤمن»[(٣)].

وكان عليه الصلاة والسلام بعث علياً رضي الله عنه إلى مكة بهذا الإعلان في العام الذي قبله، ففي «المسند» عن محرَّر بن أبي هريرة عن أبيه أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كنت مع عليّ بن أبي طالب حيث بعثه رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ببراءة فقال: ما كنتم تنادون؟ قال: كنا ننادي أنه لا يدخل الجنة إلاّ مؤمن» الحديث، قال أبو هريرة:

---

(١) «مسند أحمد» (٣/ ٤١٥) و(٤/ ٣٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «إرواء الغليل» (٤/ ١٢٩).

(٢) «مسند أحمد» (٣/ ٤١٥) و(٤/ ٣٣٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «إرواء الغليل» (٤/ ١٢٩).

(٣) «صحيح مسلم» (١١٤٢).

«فكنت أنادي حتى صَحِل صوتي»(١) أي: بُحَّ وغلظ.

وأيضاً بعث بهذا الإعلان قبل ذلك غير مرّة.

ففي «صحيح مسلم»، لما كان يوم خيبر قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنة إلاّ المؤمنون» قال: فخرجت فناديت: ألا إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون»(٢).

وأيضاً قال لبلال ﷺ: «يا بلال قم فأذن لا يدخل الجنة إلاّ مؤمن»(٣). رواه البخاري.

وفي هذا المعنى وردت أحاديثُ كثيرةٌ نصحاً للعباد، وإعذاراً إلى الله، وإقامة للحجة، وتبياناً لمقام الإيمان وشأنه، وأنَّ نعيم الله وثوابه ورضاه لا ينال إلاّ بالإيمان. فالمؤمنون هم أهل نعيم الله وثوابه وجنته، ومن سواهم لا مطمع لهم في نعيم، ولا سبيل لهم إلى فوز، وما لهم في الآخرة من خلاق.

ومن قامت عليه حجة الله، وبلغته دعوة المرسلين فأبى عن القبول أو كذب المرسلين، أو استكبر عن طاعة رب العالمين، فليس له يوم القيامة إلاّ النار هي مأواه وبئس المصير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ

(١) «مسند أحمد» (٢/ ٢٩٩)، و«سنن النسائي» (٢٩٥٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢/ ٣٢٩).

(٢) «صحيح مسلم (١١٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٦٦٠٦)، واللفظ له، ومسلم (١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ٤٠-٤٣].

فالجنة دار أهل الإيمان وطاعةِ الرحمن، ومن عداهم سواء كانوا ملاحدة لا يؤمنون بالله، أو كفاراً يكذبون به وبرسوله، أو مشركين يعبدون معه غيره، أو منافقين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر فهم من جُثا جهنم وحطب النار، يخلدهم الله فيها أبد الآباد، لا ينقذهم منها منقذ، ولا يقضى عليهم فيها فيموتوا، ولا يخفف عنهم من عذابها بل يزداد، قال تعالى: ﴿ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴾(١) [النبأ: ٣]. هذا وأهل الإيمان في الجنة يسعدون، وبنعيمها يتمتعون، لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون.

وبهذا تظهر مكانة الإيمان العالية ومنزلته السامية، فهو أعظم المطالب، وأجل المقاصد، وأنبل الأهداف، إذ به ينال العبد سعادة الدنيا والآخرة، ويدرك أهم المطالب وأجل الغايات، ويظفر بالجنة ونعيمها، وينجو من النار وسخط الجبار، وينال رضى الرب فلا يسخط عليه أبداً، ويتلذّذ بالنظر إلى وجهه الكريم في غير ضَرَّاء مُضرة ولا فتنة مُضلة، وما يناله أهل الإيمان من الثمار والآثار المباركة أمر يفوق الحصر ويتجاوز العد، وبالجملة فالخير كلّه فرع عن الإيمان ومترتب عليه، والهلاك والدمار والشر كله إنما هو بفقده ونقصه.

والإيمان إذا كان كاملاً قد أدى به صاحبه الواجبات، وترك المحرمات فإنه يمنع دخول النار، ويدخل صاحبُه الجنة بدون حساب أو عقاب، وإذا كان ناقصاً بترك واجب، أو فعل محرم فإنه يمنع صاحبه من الخلود في النار، كما تواترت النصوص عن النبي ﷺ بأنه لا يخلد في النار من في قلبه شيء من الإيمان

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي في تفسيره: «وهذه الآية أشد الآيات في شدة عذاب أهل النار أجارنا الله منها».

ولو يسيراً[١]، ثم يكون مآله إلى الجنة بعد أن يطهر بالنار من أدران ذنوبه وأقذار معاصيه.

فمنازل الناس في الآخرة إنما هي بحسب حظهم من الإيمان زيادة ونقصاً، وجوداً وعدماً، والتوفيق بيد الله وحده، والمنة كلها له سبحانه ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]، ولهذا إذا دخل أهل الإيمان الجنة وتبوءوا منازلهم فيها قالوا معترفين بمنّ الله وفضله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣]، فجمع سبحانه في هذه الآية بين الإخبار باعترافهم وثنائهم على الله بالنعمة حيث أوصلهم إلى هذه المنازل، وبين ذكر السبب الذي نالوا به هذه المنّة وهو الإيمان وأعماله، فنسأل الله أن يمنّ علينا بالإيمان الصادق، وأن يزيننا بزينة الإيمان، وأن يجعلنا هداة مهتدين.

***

(١) عن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير»، رواه البخاري (٤٤)، ومسلم (٣٢٥ـ(١٩٣)).

[١٣]
وصايا متنوعة

وثمت أمور عديدة تناولها النبي ﷺ بالبيان في خطبه ومواعظه في حجة الوداع تمس حاجة الناس إليها في صلاحهم مع ربهم وفي صلاحهم مع أنفسهم ومع مَن يعاشرون، يضيق المقام عن تفصيلها، لكن أشير إلى طائفة منها على سبيل الإجمال.

فمما بينه ﷺ في خطبه ومواعظه وتذكيره في حجته تأكيدُه على لزوم سنته واتباع هديه، وسلوك نهجه، والحذرِ من البدع والأهواء، ومن القول عليه بلا علم، أو تعمد الكذب عليه، ومفارقة هديه.

روى الإمام أحمد في «مسنده» عن عمرو بن مرة قال: سمعت مرة قال: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ قال: قام فينا رسول الله ﷺ على ناقة حمراء مخضرمة فقال: «أتدرون أيُّ يوم يومكم هذا...وذكر الحديث وفيه: «ألا وإني فرطُكُم على الحوض أنظركم، وإني مكاثر بكم الأمم فلا تسودوا وجهي، ألا وقد رأيتموني وسمعتم مني، وستسألون عنّي، فمن كذب عليَّ فليتبوّأ مقعده من النار، ألا وإني مستنقِذٌ رجالاً أو ناساً ومستنقَذٌ مني آخرون، فأقول: يا رب أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[١].

فهذا تحذير بالغ من البدع والأهواء والإحداث في الدين، وتحذير من الكذب عليه ﷺ والقول عليه بلا علم فإنه من كبائر الذنوب، وعظائم الآثام الموجبة لدخول النار.

ومما بينه ﷺ في حجة الوداع الحث على برِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والتحذير من الاعتداء على حقوق الآخرين، أو النيل من أعراضهم واغتيابهم.

---

(١) «مسند أحمد» (٥/ ٤١٢)، وقال محققوه (٣٨/ ٤٨٢): إسناده صحيح، وهو في «سنن ابن ماجه» (٣٠٥٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٩٩).

روى الطبراني في «المعجم الكبير» عن أسامة بن شَريك ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ في حجة الوداع وهو يقول: «أمَّك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك» قال: فجاء قوم فقالوا: يا رسول الله قَتَلَنا بنو يربوع؟ فقال: «لا تجني نفسٌ على أخرى» ثم سأله رجل نسي أن يرمي الجمار؟ قال: «ارم ولا حرج» ثم أتاه آخر فقال: يا رسول الله نسيت الطواف، فقال: «طف ولا حرج» ثم أتاه آخر حلق قبل أن يذبح، قال: «اذبح ولا حرج» قال: فما سألوه يومئذ عن شيء إلاّ قال: « لا حرج ولا حرج» ثم قال: «أذهب الله ﷻ الحرج إلاّ رجل اقترض مسلماً فذلك الذي حرج وهلك» وقال: « ما أنزل الله ﷻ داءً إلاّ أنزل له دواءً إلاّ الهرم»(١).

ومما بينه كذلك التحذير من الجناية على الآخرين وأن من يجني لا يرجع وبال جنايته من الإثم أو القصاص إلاّ إليه، وحذر من الشيطان وكيده وأنه لما رأى قوة التوحيد والإيمان يئس من وجود الشرك في المصلين، ولا يعني هذا اليأس انتفاء وجود الشرك، وأخبر أنه سيكون له أتباع يطيعونه فيما يدعوهم إليه، وحذر من الربا ومن الظلم.

روى ابن ماجه عن عمرو بن الأحوص ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول في حجة الوداع: «يا أيها الناس ألا أيُّ يوم أَحْرَمُ؟ ثلاث مرات، قالوا: يومَ الحج الأكبر، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا لا يجني جانٍ إلاّ على نفسه، ولا يجني والدٌ على ولده، ولا مولودٌ على والده، ألا إن الشيطان قد أيس أن يعبد في بلدكم هذا أبداً، ولكن سيكون له طاعة في بعض ما تحتقرون من أعمالكم، فيرضى بها، ألا وكل دم من دماء الجاهلية موضوع، وأول ما أضع منها دمُ الحارث بن عبد المطلب، كان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل، ألا وإنَّ كلَّ رباً من ربا الجاهلية موضوع، لكم رؤوس أموالكم، لا تَظلمون ولا تُظلمون، ألا يا أمَّتاه، هل بلّغت؟ ثلاث مرات، قالوا: نعم، قال: اللهم اشهد، ثلاث مرات»(٢).

---

(١) «المعجم الكبير» (رقم: ٤٨٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٤٠٠).

(٢) رواه ابن ماجه (٣٠٥٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح ابن ماجه» (٢٤٩٧).

ومما بيَّنه كذلك أنَّ الله قسم المواريث في كتابه وأعطى كلَّ إنسان نصيبه من الميراث، وأخبر أنَّ الولد للفراش أي لصاحب الفراش وأن العاهر له الحجر، وحذر من أن ينتسب الرجل إلى غير أبيه.

ففي «المسند» عن عمرو بن خارجة قال: خطبنا رسول الله ﷺ بمنى وهو على راحلته وهي تقصع بجرَّتها، ولُعابُها يسيل بين كتفيَّ، فقال: «إنَّ الله قسم لكلِّ إنسان نصيبه من الميراث، فلا تجوز لوارث وصيةٌ، الولد للفراش، وللعاهر الحجر، ألا ومن ادعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه رغبةً عنهم فعليه لعنةُ الله والملائكة والناس أجمعين، ولا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلًا»[١].

وبيّن أيضاً فيما بيّن قصر الدنيا وسرعة زوالها، وحذّر من الاغترار بها حيث قال للناس قبل غروب الشمس وهو واقف بعرفة: «أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى منها إلَّا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»[٢]. رواه أحمد.

وحثّ الناس على السكينة والرِّفق وعدم التدافع، فعند الانطلاق من عرفة قال: «يا أيها الناس عليكم بالسكينة والوقار»[٣] رواه النسائي. ولما تزاحم الناس عند الجمرات قال ﷺ: «يا أيها الناس لا يقتل بعضكم بعضاً، وإذا رميتم فارموا بمثل حصى الخذف»[٤] رواه أحمد.

---

(١) «مسند أحمد» (٤/ ١٨٦)، و«سنن ابن ماجه» (٢٧١٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٧٩٤).

(٢) «مسند أحمد» (٢/ ١٣٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وقال محققوه (١٠/ ٣١٤): حديث صحيح لغيره.

(٣) «سنن النسائي» (٣٠١٨) عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح النسائي» (٢/ ٣٤٦).

(٤) «مسند أحمد» (٦/ ٣٧٦)، و«سنن أبي داود» (١٩٦٦) من حديث أم جندب الأزدية رضي الله عنها، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٨٩).

وحذر الأمة من فتنة الدجال وذكر صفته، ففي «الصحيحين»[١] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نتحدث عن حجة الوداع، والنبيُّ ﷺ بين أظهرنا، ولا ندري ما حجةُ الوداع، حتى حمد اللهَ رسولُ الله ﷺ وأثنى عليه ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره، وقال: «ما بعث الله من نبي إلاّ أنذره أمته؛ أنذره نوح والنبيُّون من بعده، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه فليس يخفى عليكم، إن ربكم ليس بأعور، إنه أعور عين اليمنى كأنَّ عينه عنبة طافية» الحديث[٢].

إلى غير ذلك من الوصايا العظيمة، والعظات البالغة، والتوجيهات السديدة، نصحاً للأمة وبياناً للدين. فجزاه الله عن أمته خير الجزاء وأوفاه، وصلى الله عليه وملائكته والصالحون من عباده وسلم تسليماً كثيراً.

***

(١) «صحيح البخاري» (٤٤٠٢)، والسياق له، و«صحيح مسلم» (١٦٩).

(٢) ينظر: «فتح الباري» لابن حجر (٨/ ١٠٧).

الفهارس العامَّة

الفهارس العامة

مقدمة المجموع ٣

دروس عقدية مستفادة من الحج

تقديم فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان ٧
مقدمة ٩
بيان أنَّ الحج مدرسة عظيمة ١١
في بيان جملة من منافع الحج ١٥
الدلالات العقدية في الإهلال بالتوحيد ١٩
دلالة التلبية على التحذير من الشرك ٢٣
في بيان جملة من الفوائد المستفادة من التلبية ٢٧
في الطواف ببيت الله الحرام ٣١
تقبيل الحجر الأسود واستلام الركن اليماني ٣٥
في بيان وجوب لزوم السنة والأخذ بهدي الرسول ﷺ ٣٩
في يوم عرفة ٤٣
وجوب الإخلاص لله في الذبح ٤٧
في حلق الرأس ٥١
الإخلاص لله في الدعاء ٥٥
في التحذير من الغلوِّ في الدِّين ٥٩

الحج وتهذيب النفوس

المقدمة.. ٦٥

الحجُّ والإصلاح ٦٧

الحجَّ والاستجابة لله ٧١

الحجُّ والذِّكر.. ٧٥

الحجُّ والتوكُّل ٧٩

الحجُّ والتوبة.. ٨٣

لباس الإحرام والتذكير بالأكفان ٨٩

الحجُّ ومكانة العلماء.. ٩٣

الحجُّ والتقوى ٩٧

يوم عرفة والتذكيرُ بالموقف يوم القيامة ١٠٣

الحجُّ والرابطة الإسلامية.. ١٠٩

الحجُّ وزيادةُ الإيمان ١١٣

الحجُّ وإرغام الشيطان... ١١٧

الحج والاستغفار ١٢٣

خطب ومواعظ من حجَّة الوداع

المقدمة.. ١٣١
١- مكانة خطبه ﷺ في حجة الوداع.............................. ١٣٣
٢- خطبة يوم عرفة.. ١٣٧
٣- إبطال أمور الجاهلية.. ١٤١
٤- الوصية بالنساء.. ١٤٥
٥- تحريم الدماء والأموال والأعراض.............................. ١٤٩
٦- خمسٌ خصال موجبةٌ لدخول الجنة................................ ١٥٣
٧- بيان مَن المؤمن، ومن المسلم، ومن المجاهد، ومن المهاجر........ ١٥٧
٨- الدعوة لحملة السّنّة بالنضرة.................................. ١٦١
٩- ثلاث لا يغلّ عليهنّ قلب المسلم................................ ١٦٥
١٠- إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم.................................... ١٦٩
١١- التحذير من كبائر الإثم.. ١٧٣
١٢- لا يدخل الجنّة إلاّ مؤمن....................................... ١٧٧
١٣- وصايا متنوعة... ١٨١